الفصل الثانى

شعر حسان الإسلامى

منهج دراسته

عرضنا فى الفصل السابق شعر حسان فى جاهليته بعد أن استخلصناه من جملة شعره ، واستجلينا فيه صوراً من حياته ومنهجه فى الجاهلية ، كما بسطنا قبل ذلك موقف الإسلام من الشعر والشعراء عامة[1] ، وبقى أن نتحدث فى هذا الفصل عن شعر حسان فى الإسلام وأن نعرضه للدرس . ويقتضينا ذلك أن نتبين الأغراض التى تناولها هذا الشعر ؛ لنرى ما قد يكون اختفى من أغراض قديمة كان يطرقها ، وما جدّ فيه من فنون اتجه إليها ، وأن ننظر كذلك فى الأسباب التى حملته على أن يأخذ هذا ويدع ذاك .

وسيدعونا هذا المنهج أن نتناول بالبحث أيضاً معانيه وأساليبه وألفاظه ، وأن نعقد الموازنة بينه وبين نفسه فى الأغراض المشتركة من شعره الجاهلى والإسلامى ، لنرى مدى تأثره فى ذلك بالإسلام ، ثم نوازن بينه وبين بعض معاصريه من الشعراء المخضرمين ؛ لنضعه فى المكان الجدير به بين أولئك الشعراء .

كثرته ومدى صحته

وعلى الرغم من أن الفترة التى أنشأ فيها حسان شعره الإسلامى لا تكاد تتجاوز عشر سنوات ، لأن شعره بعد موت الرسول قليل لا يقاس بما صاغه فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام — على الرغم من ذلك قد بلغ أضعاف شعره الجاهلى الذى أنفق فى صوغه أربعين عاماً أو تزيد[2] ، وليس لباحث أن يظن أن جانباً من شعر حسان الجاهلى أغفل الرواة حفظه عامدين ، لمخالفته روح الإسلام ، وحرصاً منهم

---

(١) انظر التمهيد من هذا الكتاب .

(٢) انظر الجدول رقم ١ .

على أن يبرزوا حسان فى الصورة الوضيئة التى تلائم ما صار إليه من صحبة الرسول ، وعصبية شديدة للإسلام ، فقد كان الناس كلهم فى الجاهلية جاهليين ، وما كان أحد ليعاب بما كان عليه من أمر الجاهلية ، وما كان حسان أو غيره ليطالب بأن يكون مسلماً قبل أن يكون فى الوجود إسلام ، ولكن شعره الإسلامى هو الذى يمكن أن يكون مظنة للتزيد ، فإن قريشاً لما تعاضهت واستبّت وضعوا على حسان أشعاراً كثيرة لا تليق به[١] ؛ لأنه كان أشد عداء لهم ، كما كان أشهر الفحول من شعراء المدينة ، فكادوا له بأن نسبوا إليه الضعيف من الشعر ، كما أن عثمانيته أيام على ربما جعلت أنصار عثمان يحاولون أن ينسبوا إليه ما قيل فى عثمان ولم يعرف قائله ، واشتداد المنافسة بين قريش والأنصار صدر الدولة الأموية ربما أغرى الأنصار بأن يعزوا إليه شيئاً من جيد الشعر الذى قيل فى حسن بلائهم ونصرهم الإسلام . ولكن ما بذل فى جمع ديوانه وتحقيقه مما أشرنا إليه قبل ذلك[٢] يدعو للاطمئنان إلى صحة ما جاء به من شعره .

فنونه

وقد تناول هذا الشعر فنون الفخر ، والهجاء ، والغزل ، والوصف ، والمدح ، والرثاء ، والحكمة ، والاعتذار ، والوعيد ، والتحريض ، والدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه ، مما صار به سجلا تاريخياً ، يجمع أحداث الإسلام ويصور مشاهده .

الفخر

مدى تأثره بالإسلام

لم يغير الإسلام من طبيعة هذا الشاعر الفخور ، فقد فخر بنفسه وبقومه فى ست وثلاثين قطعة من شعره الإسلامى[٣] ، وإن غير من طابع هذا الفخر بعض التغيير ، فبعد أن كان يفخر بآبائه وقومه فخراً جاهلياً خالصاً ، نراه فى إسلامه

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٨٤ .
(٢) انظر المقدمة من هذا الكتاب .
(٣) انظر الجدول رقم ٢ .

يفخر بفعال قومه فى الإسلام ، وحسن بلائهم فى نصرته والدفاع عنه ، وما قدموا لله ورسوله فى ست عشرة قصيدة من هذه القصائد[١] ، وتراه يخلط بهذا الفخر فخراً بقومه وآبائه ، وما لهم من مجد مؤثل ونسب عريق ، مشيداً بمفاخر نفسه ومواهب قلبه ولسانه ويده فى إحدى عشرة قصيدة أخرى[٢] ، ثم يفرد التسع الباقية للتغنى بالأنساب والأحساب ومفاخر أسلافه ، من الكرم والسيادة وحمل المغارم والديات والملك العريض ، على عرار ما كان منه فى جاهليته[٣] .

فخره بما صنع قومه للإسلام

فمن أول فخره ما قاله فى قومه ، يتمدح بما قدموا للرسول من إيواء وأمن وإعزاز وبذل للأنفس والأموال عند هجرته[٤] :

وثَوى بمكةَ بِضعَ عشْرةَ حِجَّةً ... يُذَكِّرُ لو يَلْقَى خليلاً مُواتِياَ[٥]

ويَعْرِضُ فى أهلِ المواسم نفسَهُ ... فلم يَرَ من يُؤْوِى ولم يَرَ داعياَ

فلما أَتانا واطمأَنتْ به النَّوَى ... فأَصبح مسروراً بطِيبةَ راضياَ

وأصبح لا يَخْشَى عداوةَ ظالمٍ ... قريبٍ ، ولايَخْشَى من الناس باغياَ

بَذَلنا له الأَموالَ من جُلِّ مالِنا ... وأَنفُسَنا عندَ الوغى والتآسِياَ[٦]

نحارِبُ من عادى من الناس كلِّهِمْ ... جميعاً وإن كان الحبيبَ المُصافِيَا

ونعلم أَن الله لا ربَّ غيرُهُ ... وأَن كتابَ اللهِ أَصبح هادياَ

فهو يُدلِ فى رفق بما كان من بذل قومه للرسول ، ويعلن إيمانه بالله وكتابه ورسوله ، ويؤرخ للهجرة ، إذ يذكر أن إقامة الرسول فى قومه بعد رسالته كانت بضع عشرة حجة .

---

(١) هى فى الديوان أرقام ٣ و ١١ و ١٥ و ١٦ و ١٩ و ٢٢ و ٣٦ و ٤٤ و ٥٦ و ٦١ و ٦٣ و ٧٦ و ٩٥ و ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٧ .

(٢) الأرقام ١ و ٥ و ٩ و ١٧ و ٢٥ و ٧٩ و ٨٠ و ١٤٣ و ١٦١ و ١٦٦ و ١٧٥ .

(٣) الأرقام ٦ و ٧ و ٢٣ و ٧٧ و ٧٨ و ١٢٢ و ١٢٨ و ١٤٠ و ١٧٣ .

(٤) الديوان رقم ١٩ .

(٥) مواتيا : موافقا .

(٦) التآسى : المعاونة والمساواة فى المال .

وهو فى موطن آخر يفخر بكتائب الأوس والخزرج يوم بدر ، ويذكر أن حكيم بن حزام الأسدى فرّ حين رآها ؛ فيقول[١] :

أَلقَى السلاحَ وفَرَّ عنها مُهْمَلاً ... كالهِبْرزِىّ يَزِلُّ فوقَ المَنسِجِ[٢]
لما رأى بدرًا تَسيلُ جِلاهُهَا ... بكتائبٍ مِلأَوْسِ أو مِلْخَزْرَجِ[٣]
صُبُرٌ يُساقُونَ الكُماةَ حُتوفَها ... يَمشونَ مَهْيَعَةَ الطريقِ المَنْهَجِ[٤]
كم فيهمُ من ماجدٍ ذى سَوْرَةٍ ... بطلٍ بِمَكْرَهَةِ المكان المُحْرِجِ[٥]
ومُسَوَّدٍ يُعْطِى الجزيلَ بِكَفِّهِ ... حَمَّالِ أَثقالِ الدِّياتِ مُتَوَّجِ
أَو كلِّ أَرْوَعَ ماجدٍ ذى مِرَّةٍ ... أَو كلِّ مُسترخِى النِّجادِ مُدَجَّجِ[٦]

ومن فخره الخالص بما صنع قومه بالمشركين ببدر ومؤازرتهم الإسلام فى قصيدة مطلعها[٧] :

عَرَفتَ ديارَ زينبَ بالكَثِيبِ ... كخَطِّ الوَحْى فى الرَّقِّ القَشيبِ

قوله :

فلاقَيْناهُمُ مِنا بجَمْعٍ ... كأُسْدِ الغابِ من مُرْدٍ وشِيبِ
أَمامَ محمدٍ قد آزروهُ ... على الأَعداءِ فى رهَجِ الحروبِ
بأَيديهمْ صوارمُ مُرْهَفَاتٌ ... وكلُّ مُجرَّبٍ خاظِى الكُعوبِ[٨]

---

(١) الديوان رقم ٨٠ .
(٢) الهبرزى : الرامى بالسهام من الفرس . والجميل : الوسيم من كل شىء . يزل : يسرع . المنسج : هو للفرس بمنزل الكاهل للإنسان .
(٣) الجلاه : جمع جلهة وهى الجانب .
(٤) المهيعة والمنهج : الطريق الواضح .
(٥) السورة : الأثر والارتفاع . مكرهة المكان : المكان الشاق . المحرج : الضيق .
(٦) الأروع : الذى يروعك منظره وخلاله . المرة : القوة . النجاد : حمائل السيف .
(٧) الديوان رقم ١٥ .
(٨) خاظى الكعوب : ممتلىء الأنابيب .

بنو الأوس الغَطارِفُ آزرتْها بنو النجارِ فى الدِّين الصَّليبِ[١]
فغادرْنا أَبا جهلٍ صريعاً وعُتبةَ قد تَركْنا بالجُبوبِ[٢]
وشَيبةَ قد تَركْنا فى رجالٍ ذوى حسبٍ إذا انتَسَبُوا حَسيبِ
يناديهم رسولُ اللهِ لمّا قذفناهمْ كَباكِبَ فى القَليبِ[٣]
أَلم تَجدوا حَديثى كان حقًّا وأَمرُ اللهِ يأخذُ بالقُلوبِ
فما نَطقوا ، ولو نَطقوا لقالوا صَدَقتَ ،وكنتَ ذا رَأْىٍ مُصيبِ

فترى حسان قد نظم فى الأبيات الثلاثة الأخيرة مقالة رسول الله حين وقف على أصحاب القليب من قتلى المشركين ،فقال : يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًّا . فقال له أصحابه : يا رسول الله أتكلم قوماً موتى . . فقال لهم : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق[٤] . كما تراه قد ساق فخره المتقدم فى معرض الحديث عن نصيب قومه فيما كان من تلك الأحداث الجسيمة بالهجرة وغزوة بدر ،وفى ثنايا ذلك القصص الذى يقصه عنها ، فعقله ذلك عن التحليق فى سماء الفخر حرًّا طليقاً يجوبها كما يشاء ، وعن التنقل بين رياضه يقع منها حيث يحب ، ويغرد فى أفنانها ما حلا له التغريد .

فخره بقومه على مذهبه الجاهلى

فإذا شئت أن ترى كيف يتصل فخره الإسلامى بفخره الجاهلى ، وكيف يلتقى المذهبان ، وكيف يكون الفخر شاملا قويًّا مدوياً ، فاستمع إليه حين يقصد إلى الفخر فيجعله غايته ، ويتحدث عن السيادة والمجد والعزة والملك فيتخذها وسيلته . فإذا أحدث لشىء بعد هذا الفخر ذكراً كان له تبعاً ، وكان منه مستمدًّا . أصغ إليه فى قصيدته التى مطلعها[٥] :

---

(١) الصليب : المتين . الغطارف : جمع غطريف وهو السيد .
(٢) الجبوب : الأرض الغليظة .
(٣) كباكب : جماعات . القليب : البئر والمراد قليب بدر .
(٤) ابن هشام : السيرة جـ ٢ ص ٢٩٢ .
(٥) الديوان رقم ٦ .

لك الخيرُ غُضِّى اللَّوم عنى ، فإننى أحبُّ من الأخلاق ما كان أَجْمَلا

لتسمع رنين ذلك الفخر الجاهلى العريض يتردد فى واحد وثلاثين بيتاً حين بقول :

وإنا لقومٌ ما نُسَوِّدُ غادِرًا ولا ناكِلاً عندَ الحَمالَةِ زُمَّلاَ
ولا مانعاً لِلمالِ فيما ينوبُهُ ولاناكلاًفى الحرب جِبْساً مُغفلا[1]
نُسَوِّدُ منا كلَّ أَشْيَبَ بارعٍ أَغَرَّ تَراه بالجَلالِ مُكَلَّلاَ
إذا ما انْتَدَى أَجْنَى النَّدَى وابتنى العُلا
وأُلْفِىَ ذا طَوْلٍ على من تَطَوَّلا[2]
فلستَ بلاقٍ ناشئاً من شَبَابِنا وإنْ كان أَنْدَى من سِوانا وأَحْوَلا[3]
نُطيعُ فَعَالَ الشَّيخِ منا إذا سَمَا لأَمرٍ ، ولا نَعْيَا إذا الأَمرُ أَعْضَلا
له أُرْبةٌ فى حزْمِهِ وفَعالِهِ وإنْ كان منا حازمَ الرَّأىِ حُوَّلا[4]
وما ذاك إلا أَننا جَعَلتْ لنا أَكابرُنا فى أَوّلِ الخيرِ أَوّلا

فهو قد بدأ قصيدته بالحديث إلى صاحبته ، ينهاها عن لومه فيما يأتيه من المكارم ، ويذكر سجاياه ، وحبه أجمل الأخلاق ، ووصف الناقة ، ثم فخر بقومه فى مكارمهم وفعالهم ، وعرض دستور حياتهم الذى سنته لهم أوائلهم . وما زال يرتفع بقومه على الناس ، حتى تسنم بهم غارب السماء ، واعتصم بالجوزاء ، وذلك إذ يقول :

فنحن الذُّرا من نَسْلِ آدمَ والعُرَى تَرَبَّعَ فينا المجدُ حتى تَأَثَّلا[5]

---

(١) الجبس : الثقيل الذى لا خير فيه .
(٢) انتدى : جلس فى النادى . أجنى الندى : أعطى الخير . الطول : الفضل والعلو .
(٣) أحول : أقدر حيلة وحذقاً وحسن تصرف .
(٤) أربة : دهاء وإحكام وبصر بالأمور .
(٥) الذرا : الأعالى . العرى : جمع عروة ، والعروة من الشجر ما له أصل باق فى الأرض أو ما لا يسقط ورقه يعتصم بها الناس عند الجدب . تأثل : تأصل .

بَنَى العزُّ بيتاً ، فاستقرتْ عمادُهُ ... علينا ، فأَعْيا الناسَ أنْ يَتحوَّلا
وإنكَ لن تَلقى من الناس مَعشَرًا ... أعَزَّ من الأَنصارِ عزًّا وأفضلا
وأكثرَ أن تَلْقى إذا ما أَتَيْتَهُمْ ... لهم سيِّدًا ضخم الدَّسيعةِ جَحْفَلا[1]
وأَشْيبَ مَيْمونَ النَّقيبةِ ، يُبتغَى ... به الخَطَرُ الأَعلى ، وطِفلاً مُؤَمَّلا[2]
وأَمردَ مُرتاحاً إذا ما نَدَبتَهُ ... تَحمَّلَ ما حملتَهُ فَتَربَّلا[3]
وعِدًّا خطيباً لا يُطاقُ جوابُهُ ... وذا أُرْبةٍ فى شعرِه مُتنخِّلا[4]
وأَصْيَدَ نَهَّاضاً إلى السيفِ صارماً ... إذا ما دعا داع إلى المجد أَرْقَلا[5]
وأَغْيَدَ مختالاً ، يَجُــرُّ إزارَهُ ... كثيرَ النَّدَى طَلْقَ اليدين مُعَذَّلا[6]

ثم تحدث بعد ذلك عن المدينة ، مفتخراً بما تزخر به من آيات مجدهم ، وما فيها من الخصب والثراء والحدائق والجداول والسوائم والخيل الضوامر ، والأسياف والرماح التى كان من فضلها وجميل أثرها أن نصروا بها خير البرية وعظموا كتاب الله ، حتى انتهى إلى قوله :

وإنك لن تلقى لنا من معنِّفٍ ... ولاعائبٍ إلا لئيما مُضلَّلا
وإلا امرأً قد ناله من سيوفنــا ... ذُبابٌ فأَمسى مائلَ الشِّقِّ أَعْزَلا[7]
فمن يأْتِنا أَو يلقَنا عن جَنابَةٍ ... يَجِدْ عندَنا مَثْوًى كريماً ومَوْئِلا[8]
نُجيرُ فلا يخْشَى البَوادِرَ جارُنا ... ولاَقَى الغِنَى فى دُورِنا فتَمَوَّلا[9]

---

(١) الدسيعة : العطية . والمائدة الضخمة والجفنة . الجحفل : السيد العظيم القدر .
(٢) ميمون النقيبة : مبارك النفس ، مظفر بما يروم . الخطر : الشرف .
(٣) تربل : عظم شأنه .
(٤) العد : الماء الدائم والبئر لا ينقطع ماؤها . المتنخل : المتخير .
(٥) الأصيد : المرتفع الرأس المائلها كبرا . أرقل : أسرع .
(٦) الأغيد : المنعم المترف . المعذل : الملوم على جوده .
(٧) الذباب : الشر الدائم ، ومن السيوف طرفها الذى يطعن به . الأعزل : من لا سلاح معه .
(٨) روى البيت عن جنابة وعن جناية . الجنابة : البعد والغربة . والجناية : الذنب .
(٩) البوادر : أوائل الشر .

بين فخره الجاهلى والإسلامى

ولا شك فى أن حسان فى فخره هذا قد جاوز غاية فخره الجاهلى، الذى اعتبرناه فيما سلف مثلا للفخر الرائع الجامع بقصيدته :

أَلم تسأَل الرَّبْعَ الجديدَ التكلما بمَدْفَعِ أَشْداخٍ فبُرْقَةِ أَظْلَما

فأفق الفخر هنا أرحب ، وآيات السيادة أعم وأشمل ، وقد ضم فيها إلى تليد المجد مستحدثاً من طريفه . وإذا كان حسان قد فخر هناك بقوله :

ولَدْنا بنى العَنْقاءِ وابنَىْ مُحَرِّقٍ فأَكْرِمْ بنا خالاً وأَكرم بنا ابْنَما

فقد أربى هنا على هذا الفخر بقوله :

فنحن الذُّرا من نسل آدم والعُرَى تَربَّعَ فينا المجدُ حتى تأَثلا

وإذا كان قد قال فى تلك :

نُسَوِّدُ ذا المال القليل إذا بدت مروءتُه فينا وإن كان مُعْدِما

فقد قال فى هذه :

نُسوِّدُ منا كلَّ أَشْيَبَ بارعٍ أَغَرَّ تراه بالجـــلال مكلَّلا

وإذا كان قد ذكر الشجاعة والسيادة والكرم فى الأولى حين قال :

أَلسنا نَرُدُّ الكشَ عن طِيَّةِ الهوى ونَقْلِبُ مُرَّانَ الوشيجِ مُحَطَّما

وكائِنْ ترىَ من سَيِّدٍ ذى مَهابةٍ أَبوه أَبونا وابنَ أخت ومَحْرَما

لنا الجفَناتُ الغرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحا وأَسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجدةٍ دَما

فقد ذكرها هنا حين يقول :

بَنَى العزُّ بيتاً فاستقرتْ عِمادُه علينا ، فأَعيا الناس أَن يتحولا

وإنك لن تَلْقَى من الناس مَعْشَرًا أَعزَّ من الأَنصارِ عزًّا وأَفضلا

وأَكثرَ أَن تَلْقَى إذا ما أَتيتهم لهم سَيدًا ضخمَ الدَّسِيعَةِ جَحْفَلا

وأَصْيَدَ نَهَّاضاً إلى السيف صارماً إذا ما دعا داعٍ إلى الموتِ أَرْقَلا

وإذا كان حسان قد جمع أسباباً من المفاخر بمجالس الكهول المعمَّمين لدى أبيات قومه ، فى قصيدته التى قلنا إنها من عيون شعره الجاهلى ، والتى تسامى فى

فخرها جاهليته السالفة . وذلك بقوله :

وتَلْقَى لدى أَبياتنا حينَ نُجْتَدَى مَجالسَ فيها كلُّ كَهلٍ مُعَمَّمِ
رفيعِ عمادِ البيتِ يَسْتُرُ عِرضَهُ من الذمِّ ميمونِ النَّقيبَةِ خِضْرمِ
ضَروبٍ بأَعجازِ القِداحِ إذا شَتا سريعٍ إلى داعى الهِياجِ مُصَمِّمِ
أَشَمَّ طويلِ الساعدَيْنِ سَمَيْدَعٍ مُعيدِ قِراعِ الدَّارعِينَ مُكلَّمِ

فقد فرق هذه المفاخر وغيرها بقصيدته التى بين أيدينا فى عامة قومه : من أشيب ميمون النقيبة ، وسيد ضخم الدسيعة ، وعِدّ خطيب ، وشاعر خطير ، وطفل مؤمل ، وأمرد أريحى ، وأصيد نهاض ، وأغيد مختال ، بقوله :

وإنك لن تَلقى من الناس مَعْشرًا أَعزَّ من الأَنصار عِزًّا وأَفضلا

إلى قوله :

وأَغيـدَ مختالاً يَجُرُّ إزارَه كثيرَ النَّدَى طَلْقَ اليدينِ مُعَذَّلا

وقد ضم إلى هذا فخره بالمدينة المنيعة العزيزة وما حوت ، وبنصر النبى وإيوائه ، فى معان كريمة مستغرقة لأسباب الفخر ، وألفاظ نقية جزلة مختارة ، وأساليب جميلة تفيض قوة وحياة .

تشابه منهجه الجاهلى والإسلامى

وليست هذه الفخرية الطويلة بيتيمة فخره الجامع الناصع . ولذلك سنكون أكثر شعوراً بطبيعة حسان الفاخرة . التى بسطت سلطانها عليه فى جاهليته وفى إسلامه ، وأعمق إحساساً بتشابه منهجه الفخرى فيهما . وأبلغ ارتياحاً إلى إنصاف هذا الشاعر الفخور بالاعتراف له بما يستحقه من تقدير وإعجاب . حين نعرض جملة من قصائد فخره . تجرى كلها على هذا النسق ، وتنتهى إلى هذه الغاية .

فهذا حسان يفخر بقومه الأولين ، وما كان لهم من ملك قديم فى بلادهم ، وبسيرهم إلى المدينة بأثقالهم وجيادهم ، ويذكر ما كانت عليه من أمن ومنعة وخصب وثروة ، وكيف غلبوا على أهلها ، وورثوا مساكنهم من بعدهم ، فصار لهم بها ملك

على الأيام لم يتحول ، ثم يذكر هجرة الرسول إليهم ، ويفخر بتصديقهم إياه ، وقيامهم بأسيافهم دونه ، معلناً أن هذه الصولة ، وتلك الدولة ، وما هم عليه من عزة وحمية ونجدة ميراث القرون ، وآثار آبائه الأولين ، وهو فى قصيدته هذه يتجه إلى الفخر دون مقدمة ، ويمضى فيه مؤرخاً فى ثناياه لهجرة قومه من اليمن إلى الحجاز ، ويظل على فخره حتى يتمها فى أربعة وثلاثين بيتاً . فيقول[1] :

أُولئك قَومى فإن تَسْأَلِى ... كرامٌ إذا الضيفُ يوماً أَلَمّ
عِظامُ القُدُورِ لأَيْسارِهِمْ ... يَكُبُّونَ فيها المُسِنَّ السَّنِمْ[2]
يُواسونَ مَولاهمُ فى الغِنَى ... ويَحْمُون جارَهُمُ إن ظُلِم
وكانوا ملوكاً بأَرْضِيهِمُ ... يُبَادُون غَضْباً بأَمْرٍ غَشِمْ[3]
ملوكاً على الناسِ لم يُمْلَكوا ... من الدهر يوماً كحِلِّ القَسَمْ[4]
فأَنْبُوا بعادٍ وأَشياعِهـا ... ثمودَ وبعضِ بقايا إرَمْ[5]
بيثربَ قد شَيَّدُوا فى النخيـ ... ـلِ حُصوناً ودَجَّنَ فيها النَّعَمْ[6]
نَواضحُ قد عَلَّمَتها اليهو ... دُ عُلَّ إليك وقولاً هَلُمّ[7]
وفيما اشتهَوْا من عصير القِطا ... فِ ، وعيشٍ رَخِىٍّ على غيرِ هَمّ[8]
فساروا إليهم بأَثقالهمْ ... على كلِّ فَحلٍ هِجانٍ قَطِمْ[9]

---

(١) الديوان رقم ٩ .
(٢) الأيسار : جمع يسر كسبب وهو القوم المجتمعون على الميسر . السنم : العظيم السنام .
(٣) يبادون : يكاشفون . الغضب : الأسد الغضوب . غشم : ظالم .
(٤) كحل القسم : يريد أنهم ملكوا الناس وحل لهم ذلك لأنهم وفوا بحق الملك ، كما يحل المرء من القسم حين يفى به .
(٥) أنبوا : أخبروا . إرم : من نسل نوح .
(٦) دجن النعم : ألف الناس وأقام بينهم والنعم الإبل .
(٧) عل : زجر تزجر به الإبل وعل من العلل وهو الشرب الثانى .
(٨) عصير القطاف : الخمر والقطاف ما يقطف من عنب وغيره .
(٩) الهجان : الإبل البيض وهى أكرمها . قطم : شهوان هائج .

جيادُ الخيولِ بأَجْنابِهِمْ وقد جَلَّلوها ثِخانَ الأَدَمْ[١]
فلما أَناخُوا بِجَنْبَىْ صِرارٍ وشَدُّوا السُّروجَ بِلَىِّ الحُزُمْ[٢]
فما راعهم غيرُ مَعْجِ الخيو لِ ،والزحفُ من خلْفهم قددَهِمْ[٣]
فطاروا شِلالاً وقد أُفزِعوا وطِرنا إليهم كأُسْدِ الأَجَمْ[٤]
على كلِّ سَلْهَبَةٍ فى الصِّيا نِ ، لا تستكينُ لطول السَّأَمْ[٥]
وكلِّ كُمَيْتٍ مُطارِ الفؤا دِ ،أَمينِ الفُصوصِ كمثل الزُّلَمْ[٦]
عليها فوارسُ قد عاودوا قِراعَ الكُماةِ وضَرْبَ البُهَمْ[٧]
ليوثٌ إذا غَضِبوا فى الحرو ب ، لا يَنْكِلُونَ ، ولكنْ قُدُمْ[٨]
فأُبْنا بسادتهم والنسا ءِ قسرًا ، وأَموالُهُمْ تُقْتَسَمْ
ورِثنا مساكنَهُمْ بعدَهُمْ وكنا ملوكاً بها لم نَرِمْ[٩]

وبعد أن أتم حسان رحلته فى مشاهد مجد آبائه من غابر وحاضر، عاد يُمد فخره بسبب من أسباب قوته ، فذكر ما كان من أمرهم أيضاً مع الرسول ، فقال :

فلما أَتانا رسولُ المليـ ـكِ بالنور والحقِّ بعدَ الظُّلَمْ
رَكَنَّا إليه ولم نَعْصِهِ غداةَ أَتانا من ارض الحَرَمْ
وقلنا صدقتَ رسولَ المَلي ـكِ ، هَلُمَّ إلينا وفينا أَقِمْ

---

(١) بأجنابهم : تسير إلى جانبهم . جللوها ثخان الأدم : غطوها بالجلود الثخينة .
(٢) صرار : موضع بالمدينة وقيل جبل وقيل ماء . الحزم جمع حزام .
(٣) معج الخيول : سرعتها فى ذهابها ومجيئها .
(٤) شلالا : متفرقين .
(٥) السلهبة : الفرس إذا عظمت وطالت . الصيان : الحفظ .
(٦) الكميت من الخيل ما لونه الحمرة يمازجها السواد . مطار الفؤاد : ذكى نشيط . أمين الفصوص قوى المفاصل . الزلم : القدح .
(٧) البهم : جمع بهمة وهو الفارس الذى لا يعرف من أين يؤتى لشدة بأسه .
(٨) ينكلون : مثلثة الكاف يجبنون . قدم : يقدمون ويهجمون .
(٩) لم نرم : لم نتحول .

فنشهدُ أنك عبدُ المليـ ـكِ ،أُرسلتَ نورًا بدينٍ قِيَمْ[١]
فنادِ بما كنتَ أَخْفَيْتَهُ نداءً جِهارًا ولا تَكتَتِمْ
فإنا وأولادَنا جُنَّـةٌ تَقِيكَ ، وفى مالنا فاحتَكِمْ
فنحن وُلاتُكَ إذ كذبو ك ، فناد نداءً ولا تَحْتَشِمْ
فطار الغُواةُ بأَشياعِهِمْ إليه ، يظنون أن يُخْتَرَمْ[٢]
فقمنا بأَسيافنا دونَهُ نجالد عنه بُغاةَ الأُمَمْ
بكلِّ صَقيلٍ له مَيْعَةٌ رقيقِ الذُّبابِ غَمُوسٍ خَذِمْ[٣]
إذا ما يصادف صُمَّ العِظا مِ ، لم يَنْبُ عنها ولم يَنْثَلِمْ
فذلك ما أَوْرَثَتْنَا القرو نُ ، مجدًا تليدًا وعزًّا أَشَمْ[٤]
إذا مَرَّ قَرْنٌ كفى نسلُه وخَلَّف قَرْناً إذاما انْقَصَمْ[٥]
فما إنْ من الناس إلا لنـا عليه ـ وإن خَاسَ ـ فضلُ النِّعَمْ[٦]

موازنة بين القصيدتين . اختيار البحور الملائمة للفخر وأثر ذلك

وهذه القصيدة ليست فى قوة القصيدة السالفة وإن تبعتها فى منهجها ، وربما كان لاختلاف بحرى الشعر فيهما بين الطويل فى الأولى والمتقارب فى الثانية أثر فى ذلك ، فالطويل لكثرة مقاطعه أكثر مناسبة لجلال مواقف المفاخرة والمهاجاة والمناظرة[٧] ، وقد يكون لاختلاف حال الشاعر النفسية والدواعى التى هاجته للقول شىء من الأثر كذلك ، فحسان قد أنشأ قصيدته الأولى للإشادة بمفاخر قومه وأوائله ، فأخلصها لهذا الغرض ، ولم يعرض لذكر الرسول إلا عرضاً عابراً فى بيتين ، أراد بهما أن

---

(١) دين قيم : مستقيم لا اعوجاج فيه .
(٢) يختَرم : يصاب ويهلك .
(٣) الميعة : صفاء يشبه الماء . غموس : موغل فى المطعون . خذم : قاطع .
(٤) القرون : جمع قرن وهو سيد القوم والأمة قد هلكت ، والوقت من الزمان .
(٥) كفى نسله : قام نسله بما يجب خير قيام . انقصم : انقطع وانقرض .
(٦) خاس : غدر .
(٧) انظر موسيقى الشعر ص ١٨٩ .

يؤكد تلك المفاخر بذكر ما لا تزال تصنعه سيوفهم . ولكنه قسم قصيدته الأخرى بين فخره بمجد آبائه الأولين ، وبين فخره بما صنعوا للرسول ، فى أسلوب يغلب عليه القصص .

فخره بقومه هدفه الأول

وقد يشعر هذا بأن حماسته لمفاخر آبائه وانفعاله بها كانا أقوى إذ ذاك من حماسته وانفعاله بأحداث الإسلام ، وقد تؤيد هذه الفكرة الموازنة بين جزأى هذه القصيدة ، فإن فخره فيها بما كان لقومه من قديم المآثر أقوى من فخره بنصرهم الرسول فى القصيدة نفسها ، يبدو هذا فى ضعف العبارة ، وعجزها عن إشعار السامع بالدفعة الشعرية وقوة الروح التى تمليها ، وقصور الألفاظ عن أداء ما كان ينبغى أن تحمله إلى السامع من معنى جليل وأثر جميل ، فقد كرر قوله : « رسول المليك وعبد المليك » مع أن لفظ المليك هنا لا يستوجب هذا التكرار ، وسهل همزة أرض حين قال « من ارض الحرم » فكان من ذلك كالنظامين الناشئين ، وكان قوله « ولا تحتشم » مجافياً كل المجافاة لموضعه من الكلام . ولكنه قد حاول الإفادة من لفظ القرآن فى قوله : « ورثنا مساكنهم بعدهم » وقوله : « بدين قيم » ، فكأنه جارى فى الأول قوله تعالى : « أَوْرَثَكم أَرضَهُم وديارَهُمْ » ، وأخذ الآخر من قوله : « دِيناً قِيماً مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً » .

بقاء حسان على مذهبه الجاهلى إلى آخر عهد الرسول

ومضت سنوات على الهجرة ، ومضت غزوة الطائف فى الثامنة منها ، فلم تنل هذه السنوات من طبع حسان الجاهلى ، ولم تغير من منهجه ، فهو ما زال يفخر بسيادة قومه ومجدهم التليد ، ويعد مآثرهم فى الإسلام ، ومواقفهم فى أحداثه موقفاً بعد موقف ، فى قصيدة له مطلعها[1] :

أَهَاجَكَ بالبَيْداءِ رَسْمُ المنـــازلِ نعم ، قد عَفَاها كلُّ أَسْحَمَ هاطِلِ[2]

---

(١) الديوان رقم ١٧ .

(٢) الأسحم الهاطل : السحاب الأسود المطر .

وذلك إذ يقول :

أَلا أَيُّها الساعِى لِيُدرِكَ مجدَنا ... نَـأَتْكَ العُلا فارْبَعْ عليكَ فسائلِ[١]

فهل يَستوِى ماءانِ أَخضرُ زاخِرٌ ... وحِسْىٌ ظَنُونٌ ماؤُه غيرُ فاضِلِ[٢]

فمَن يَعْدِلُ الأَذنابَ ويحكَ بالذُّرا ... قد اختلفـــا بِرٌّ يَحِقُّ بباطلِ

تناولْ سُهَيْلاً فى السماء فَهاتِهِ ... ستُدركُنا إنْ نِلتَهُ بالأَناملِ

أَلَسْنا بحَلاَّلِينَ أَرضَ عَدُوِّنا ... تَأَرَّ قليلاً ، سَلْ بنا فى القبائِلِ[٣]

تَجدْنا سَبَقنا بالفَعَال وبالنَّـــدَى ... وأَمرِ العَوَالِى فى الخُطوب الأَوائِلِ[٤]

ونحن سَبَقنا الناسَ مجدًا وسُؤْدُدًا ... تَليدًا ، وذِكْرًا نامياً غيرَ خامِلِ

لنا جبلٌ يَعْلو الجبالَ مَشَرَّفٌ ... فنحن بأَعلى فَرْعِهِ المَتَطاوِلِ[٥]

فخره على وفد تميم جاهلى النزعة والأسلوب

وكان بعد غزوة الطائف عام الوفود ، وجاء وفد تميم يفاخر الرسول ، فدعا النبى حسان للرد على شاعرهم ، وكان الواجب والواقع واللياقة والمنطق كلها تقضى بأن يسمعهم حسان فخراً بالرسول وتنويهاً برسالته وبالدين القويم ، وبخاصة أن الزبرقان ابن بدر شاعر ذلك الوفد كان قد قام ففخر ببنى تميم وخص دارماً منهم ، وادعى أنه ليس فى أرض الحجاز مثلهم ، وذلك فى قصيدته التى مطلعها :

أَتيناكَ كيما يَعلمَ الناسُ فَضْلَنا ... إذا احتَفَلُوا عند احْتضارِ المَوَاسِمِ[٦]

ولكن حسان وقف يفخر بالأنصار ، وبقديمهم فى الإشراك ، وحديثهم

---

(١) اربع عليك : كف وترفق وانتظر .

(٢) الماء الأخضر الزاخر : البحر . الحسى : حفيرة قريبة القعر يكون بها ماء المطر . ظنون : لا يوثق به .

(٣) تأرّ : تلبث وانتظر .

(٤) الفعال : اسم للفعل الحسن . العوالى : الرماح .

(٥) جبل : يقصد به الأثر الضخم المشهور من المجد .

(٦) ابن هشام السيرة ٤/٢١١ .

فى الإسلام ، وبولادتهم الرسول ونصرهم إياه ، وذلك إذ يقول[١] :

هل المَجْدُ إلا السُّودَدُ العَوْدُ والنَّدَى ... وجاهُ الملوكِ واحتمالُ العَظَائِمِ[٢]
نَصَرْنا وآوَيْنا النبيَّ محمدًا ... على أَنْفِ راضٍ من مَعَدٍّ وراغِمِ
بِحَيٍّ حَرِيدٍ أَصْلُهُ وذِمَـارُهُ ... بجَابِيَةِ الجَوْلانِ وَسْطَ الأَعاجِمِ[٣]
نَصَرناه لمّا حَلَّ وَسْطَ رِحالِنا ... بأَسيافنـا من كلِّ باغٍ وظالِمِ
جَعلْنا بَنينَا دُونَهُ وبناتِنـا ... وطِبْنا لهُ نَفْساً بفَيءِ المَغانِمِ
ونحن ضَرَبْنا الناسَ حتى تَتَابَعُوا ... على دِينِهِ بالمُرْهَفاتِ الصَّوارِمِ
ونحن ولَدْنا من قريشٍ عَظِيمَها ... وَلَدْنا نبيَّ الخيرِ من آلِ هاشِمِ[٤]
لنا المُلْكُ فى الإشْراكِ والسَّبْقُ فى الهُدَى ... ونَصْرُ النبيِّ وابتغاءُ المَكارِمِ

ومنهج حسان فى الفخر بولادتهم الرسول يشبه منهجه الجاهلى فى الفخر بولادتهم « بنى العنقاء وابنى محرِّق » إذ يقول[٥] :

وَلَدْنا بَنِى العَنْقاءِ وابْنَىْ مُحَرِّقٍ ... فأَكْرِمْ بنا خالاً وأَكْرِمْ بنا ابْنَما

وفخره بما صنعوا هنا أشبه بالمن كما ذكرنا من قبل ، وهو أشد منًّا وأبعد عما يليق بمقام الرسول فى قوله : « وطبنا له نفساً بفىء المغانم » . والظاهر أن الزبرقان قد غاظه أن حسان قد خصمه ، فانبرى له مرة أخرى قائلا[٦] :

نحن الكِرامُ ، فلا حَىٌّ يُعادِلُنـا ... منا الملوكُ ، وفينا تُنْصَبُ البِيَعُ[٧]

فى أبيات من الفخر الجاهلى يحاول بها أن يبارى حسان فى فخره، فنهض له

---

(١) الديوان رقم ٢٥ .
(٢) السودد العود : الشرف القديم الذى يتجدد مع الزمن .
(٣) حريد : منفرد منعزل لعزهم . الذمار : ما يجب أن يحميه المرء . جابية الجولان : فيها ديار الغساسنة بالشام .
(٤) يقول إنهم ولدوا النبى وذلك لأن أم جده عبد المطلب من بنى النجار .
(٥) الديوان رقم ٤ .
(٦) ابن هشام السيرة ٤/٢٠٨ .
(٧) البيع : جمع بيعة مكان الصلاة والعبادة عند غير المسلمين .

حسان يفخر بأصحاب الرسول من سادة قريش، وبمن تبعه من الأنصار، ويمدحهم فى قصيدة مشهورة من جيد شعره . مطلعها[١] :

إن الذَّوَائِبَ من فِهْرٍ وإخوتِهِمْ قد بَيَّنُوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ[٢]

وفيها يقول :

نَسْمُو إذا الحربُ نالَتْنا مَخَالِبُها إذا الزَّعَانِفُ من أَظفارها خَشَعُوا[٣]
لا فُرُحٌ إنْ أَصابُوا من عدوِّهِمُ وإن أُصِيبُوا فلا خُورٌ ولا جُزُعُ[٤]
كأَنَّهمْ فى الوَغَى والموتُ مُكْتَنِعٌ أُسْدٌ ببِيشَةَ فى أَرْساغِها فَدَعُ[٥]
إذا نَصَبْنا لِقومٍ لا نَدِبُّ لَهُمْ كما يَدِبُّ إلى الوَحْشِيَّةِ الذَّرَعُ[٦]
أَكْرِمْ بقومٍ رسولُ اللهِ شِيعتُهُمْ إذا تَفَرَّقت الأَهْواءُ والشِّيَعُ[٧]
أَهْدَى لهم مِدَحِى قلبٌ يُؤَازِرُهُ فيما يُحِبُّ لِسانٌ حائِكٌ صَنَعُ
فإنهمْ أفضلُ الأَحياءِ كلِّهِمِ إن جَدَّ بالناس جِدُّ القولِ أَو شَمِعُوا[٨]

فأفحمهم حسان بهذا الفخر الذى أصاب موضعه، حتى نهض الأقرع ابن حابس فقال: «وأبى إن هذا الرجل لَمُؤَتًّى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا» ، ثم أسلموا[٩] .

وهو فى هذه القصائد جاهلى النزعة والأسلوب ، شديد الإحساس بمجد قومه ،

---

(١) الديوان رقم ٢٣ .
(٢) الذوائب : الأعالى والأشراف ، وفهر : هو قريش . وقيل أصل قريش . ويريد بذوائب فهر المهاجرين . وبإخوتهم الأنصار .
(٣) الزعانف : السفلة .
(٤) خور : ضعفاء . جزع : قليلو الصبر .
(٥) مكتنع : دان قريب . بيشة : موضع مشهور بالأسود . فدع : عوج وميل فى المفاصل .
(٦) نصبنا لقوم : حاربناهم . ندب : نسير متخفين . الذرع : ما يستتر به الصياد حتى يدنو من صيده فيرميه .
(٧) الشيعة : الأتباع والناصرون ، والمراد هنا الناصر .
(٨) شمعوا : طربوا ولعبوا ومزحوا .
(٩) ابن هشام السيرة ٤/٢١٢ .

كثير التغنى بسيادة أوائله ، يغلب زهوه بما صنعوا للرسول على زهوه بالرسول ، وكأنه لا يذكر حاضرهم فى الإسلام إلا ليضم إلى تليد مجدهم مجداً طارفا ،وكأن إيواءهم الرسول ونصرهم إياه قد أحيا شعوره بمآثر أسلافه ، وأمده فى فخره بمدد غزير ، ونفخ فيه روحاً قويًّا ، أضفى على شعره ثوباً من الفخامة والجزالة والحسن .

حسان وصاحباه فى فخرهم الاسلامى

والعجيب أنك لا ترى لعبد الله بن رواحة ولا لكعب بن مالك وهما أخواحسان فى خزرجيته ، وفى دفاعه عن الإسلام ، شعراً إسلاميًّا فى الفخر بمجد آبائهما ، والزهو بما كان لهم من عزة وسيادة وملك ، إلا شيئاً قليلا هادئاً نجده لكعب ،وهو إلى هذا يختلف كثيراً عما عرضنا من شعر حسان ، من ذلك قوله فى أحد [١] :

فإن تَسْأَلِى ثم لا تُكْذَبِى ... يُخَبِّرْكِ من قد سألتِ اليقينا
بأَنا لياليَ ذاتِ العِظـا ... مِ كنا ثِمَالاً لمن يَعْتَرينا[٢]
تَذُودُ البُجُـودُ بأَذْرائِنـا ... من الضُّرِّ فى أَزَمَاتِ السِّنِينَا[٣]
بِجَدْوَى فُضُولِ أُولِى وُجْدِنا ... وبالصبرِ والبَذْلِ فى المُعْدِمِينا[٤]

ثم يقول :

فإن كنتَ عن شأْنِنا جاهـلاً ... فسَلْ عنه ذا العِلْمِ مِمَّنْ يَلِينَا
بنـا ، كيف نفعلُ إنْ قَلَّصَتْ ... عَوَاناً ضَرُوساً عَضُوضاً حَجُونا[٥]
أَلَسْنا نَشُدُّ عليها العِصَا ... بَ ، حتى تَدِرَّ وحتى تَلِينا[٦]

---

(١) ابن هشام السيرة ٣/١٦٧ .

(٢) ذات العظام : أى التى تجمع فيها العظام فتطبخ ليستخرج ودكها ودهنها . الثمال : الغياث . يعترينا : يزورنا .

(٣) البجود : جماعات الناس . الأذراء : الأكناف .

(٤) جدوى : عطاء . فضول : جمع فضل . أولى وجدنا : أصحاب السعة منا .

(٥) قلصت الحرب : ارتفعت واشتدت . عوان : تكرر فيها القتال . الضروس : الشديدة العضوض : الكثيرة العض . الحجون : المعوجة الأسنان .

(٦) العصاب : ما يشد به الضرع .

وعَلَّمَنـــا الضَّربَ آباؤُنا وسوف نُعَلِّمُ أَيضاً بَنِينا
جلادَ الكُماةِ وبَذْلَ التِّلا دِ عن جُلِّ أحسابنا ما بَقِينا[1]
إذا مَرَّ قَرْنٌ كَفى نَسْلُهُ وأَوْرَثَهُ بَعْدَهُ آخَرِينـــا

فكعب يتحدث عن الكرم والشجاعة ؛ ويقول فى الحماسة، ويشير إشارة عابرة إلى أن آباءهم هم الذين علموهم الضرب ، وأنهم سوف يعلمونه أيضاً بنيهم ، ثم يلتقى فى بيته الأخير مع حسان فى قوله :

إذا مَرَّ قرْنٌ كفى نَسْلُه وخَلَّفَ قَرْناً إذا ما انقَصَمْ

فتراه فيه أشمل معنى وأحسن لفظاً من حسان .

ولكعب فى غزوة الخندق شعر ، يفخر فى ثلاث قصائد منه[2] . ولكن فخره يسترعى انتباهك إلى حقيقتين : الأولى، أنه لا يفخر بآبائه وسيادتهم ومآثرهم ، وإنما يفخر بحاضر فعال قومه وشجاعتهم ونجدتهم ، والأخرى ، أنه لا يتحدث عن نصرهم للرسول كما يتحدث من يفخر على الرسول ، وإنما يتناول الأمر بما يليق أن يتناول به ، فيذكر عون الله لهم ، وطاعتهم لنبيهم ، ويقول : إنهم بذلك ينُصرون ، ويظهر عزهم ، وينالون من أمرهم مرفقاً ، وذلك إذ يقول[3] :

ويُعينُنا اللهُ العزيزُ بقُوَّةٍ منه وصِدْقِ الصبرِ ساعةَ نَلْتَقِى
ونُطيعُ أمرَ نبيِّنا ونُجيبُهُ وإذا دعا لِكريهَةٍ لم نُسْبَقِ
ومتى يُنادِ إلى الشدائدِ نَأتِها ومتى نَرَ الحَوْماتِ فيها نُعْنِقِ[4]
من يَتَّبعْ قولَ النبيِّ فإنهُ فينا مُطاعُ الأمرِ حَقٌّ مُصَدَّقِ
فبذاك يَنْصُرُنا ويُظهِرُ عزَّنا ويُصيبنا من نَيْلِ ذاكَ بمِرْفَقِ[5]

---

(١) الكماة : الشجعان والمسلحون . التلاد : المال القديم . الجلاد : المضاربة بالسيوف .
(٢) ابن هشام السيرة ٣/٢٧١ و ٢٧٣ و ٢٧٦ .
(٣) ابن هشام السيرة ٣/٢٧٥ .
(٤) الحومات : جمع حومة . وهى موطن القتال . نعنق : نسرع .
(٥) المرفق : اليسر واللطف .

ولكن حسان ما كان ليلتزم اللياقة فى الحديث عن فضل قومه على الإسلام ، وعما صنعوا للرسول فى كل حال ، وقد قدّمنا ما يؤيد ذلك ، وما كان يذكر فضل الله عليهم بهذا إلا فى بعض شعره ، حين تهدأ فى نفسه سورة الفخر بقومه ، ويتأمل ما حوله من الآيات البينات ، فتكف من غَرْبه ، وترده بعض الشىء عن غايته ، ولكنه سرعان ما ينقلب مسرعاً إلى هوى نفسه من الفخر بالأنساب ، والتغنى بكريم المآثر والفعال ، كقوله[1] :

وكنا ملوكَ الناسِ قبلَ محمدٍ ... فلما أتى الإسلامُ كان لنا الفضلُ
وأكرَمنا اللهُ الذى ليس غيرَهُ ... إلهٌ بأيامٍ مضتْ ما لها شَكْلُ
بِنصر الإلهِ والنبىِّ ودينِهِ ... وأكرَمنا باسمٍ مضى ما له مِثْلُ
أُولئك قوْمى ، خيرُ قومٍ بأَسْرِهِمْ ... فما عُدَّ من خيرٍ فقَوْمِى له أَهْلُ
يَرُبُّون بالمعروف معروفَ من مَضَى ... وليس على معروفِهم أبدًا قُفْلُ

وقوله[2] :

اللهُ أكرمَنَا بنصرِ نبيِّهِ ... وبنا أقام دَعَائمَ الإسلامِ
وبنا أعزَّ نبيَّهُ وكتابَهُ ... وأعزَّنا بالضَّرْبِ والإقدامِ
فى كل مُعْتَرَكٍ تُطيرُ سيوفُنا ... فيه الجماجمَ عن فِراخِ الهامِ[3]
يَنْتابُنا جبريلُ فى أبياتنا ... بفرائضِ الإسلام والأحكامِ
نحن الخيارُ من البَرِيَّةِ كلِّها ... ونِظَامُها ، وزِمامُ كلِّ زِمامِ
الخائضو غَمَراتِ كلِّ منيَّةٍ ... والضامنون حوادثَ الأيامِ
والمُبْرِمونَ قُوَى الأمورِ بعزِّهِمْ ... والناقضونَ مَرائرَ الأقوامِ[4]

ثم أنصتْ إلى وحى العزة الشامخة ، والسيادة الشاملة ، والقوة الدافقة ، وتلك

---

(١) الديوان رقم ١٦١ .
(٢) الديوان رقم ١٦٦ .
(٣) فراخ الهام : يقصد بها ما فى الرأس من الدماغ .
(٤) مرائر الأقوام : أمورهم المحكمة . المرير : الحبل المحكم الفتل .

النبرات الملكية المتعالية فى قوله :

سائلْ أَبا كَربٍ وسائلْ تُبَّعاً ... عنا وأَهلَ العِتْرِ والأَزْلامِ[١]
واسأَلْ ذَوِى الأَلبابِ عن سَرَواتِهِمْ ... يومَ العُهَيْنِ فحَاجِرٍ فَرُوَّامِ[٢]
إنا لنَمْنَعُ من أَرَدْنا منعَهُ ... ونجودُ بالمعروفِ لِلمُعْتامِ[٣]
وَتَرُدُّ عادِيَةَ الخَمِيسِ سيوفُنا ... ونُقيمُ رأسَ الأَصْيَدِ القَمْقَامِ[٤]
ما زال وَقْعُ سيوفِنا ورماحِنـــا ... فى كل يومِ تَجَالُدٍ وتَرَامِ
حتى تركنا الأَرضَ سَهْلاً حَزْنُـها ... منظـــومةً من خَيْلِنا بِنِظَامِ
فلَئِنْ فَخَرْتُ بهمْ لَمِثْلُ قديمِهِمْ ... فَخَرَ اللبيبُ به على الأَقوامِ

لماذا تفرد حسان بمنهجه فى الفخر بقومه

وينبغى أن نقف هنا وقفةً متسائلين : لماذا تفرد حسان بإطالة الفخر بآبائه وإجادته ؟ ولن يطول بنا انتظار الجواب . فقد كان حسان من بنى النجار ، وهم ذؤابة الخزرج وأهل الصيت والشأن فيهم ، حتى بلغ من ذلك أنه كان يستعاض بذكرهم عن ذكر الخزرج فى كثير من الأمر ، يستوى فى هذه النظرة إليهم الأولياء والأعداء .

فضِرَار بن الخطاب الفِهْرى القرشى يعُد بنى النجار قسيما للأوس ، إذ يقول فى شعر بدر[٥] :

عَجِبتُ لفخر الأَوسِ ، والحَيْنُ دائرٌ ... عليهم غدًا ، والدهرُ فيه بصائرُ
وفخرِ بنى النجارِ ، أَنْ كان معشرٌ ... أُصيبوا ببَدْرٍ ، كُلُّهمْ ثَمَّ صابرُ

---

(١) أبو كرب : من ملوك اليمن . التبابعة ملوكها كذلك ، وذلك أن أصله منهم . العتر : الذبيحة كانت تذبح على الصنم . الأزلام : قداح كانوا يستقسمون بها .
(٢) السروات : الأشراف . العهين وحاجر وروام : من أيام حروبهم .
(٣) المعتام : الذى يقصدنا ويختارنا .
(٤) الخميس : الجيش . الأصيد القمقام : العظيم الواسع الفضل والملك .
(٥) ابن هشام السيرة ٣/١٣ و ١٤ .

وإذ يقول :

وتَرْدِى بنا الجُرْدُ العَنَاجِيجُ وسْطَكُمْ بنى الأَوسِ حتى يَشْفِىَ النفسَ ثائرُ
ووسْطَ. بنى النجارِ سوف نَكُرُّهـا لها بالقَنا والدارِعِينَ زَوَافِرُ

ويفعل كعب بن مالك أخو بنى سَلَمة أكثر من هذا ، فإنه — وهو خزرجى غير نجارى — يرضى بأن يجعل بنى النجار للخزرج عنواناً، فيقول فى بدر أيضاً[1] :

وفينـا رسولُ اللهِ والأَوسُ حولَهُ له مَعْقِلٌ منهم عزيزٌ وناصرُ
وجَمْعُ بنى النجار تحتَ لِوائِهِ يُمَشُّونَ فى المَاذِىِّ والنَّقْعُ ثائرُ

ويقول عبد الله بن الزبعرى فى أحد[2] :

فغادَرْنَ قتلى الأَوسِ عاصِبَةً بهمْ ضِباعٌ وطيرٌ يَعْتَفِينَ وُقـوعُ
وجَمْعَ بنى النجار فى كل تَلْعَةٍ بأَبدانهم مِن وَقْعِهِنَّ نَجِيعُ

أما عمرو بن العاص فيخصهم بالذكر يوم أحد، ويقول[3] :

تمنَّتْ بنو النجارِ جهلًا لِقاءَنا لدى جَنْبِ سَلْعٍ والأَمانىُّ تَصْدُقُ

ويفعل فعله ضرار إذ ذاك، فيقول[4] :

قَتْلَى كِرامٌ ، بنو النجار وَسْطَهُمُ ومُصْعَبٌ من قَنانا حَوْلَهُ قِصَدُ

ويقول أبو سفيان بن حرب فى ذلك اليوم[5] :

وسَلَّى الذى قد كان فى النفس أننى قَتَلْتُ من النجارِ كلَّ نَجيبِ

لهذا لم يكن غريباً أن يستمد حسان فخره من ضخامة هذا النسب التى يعترف لها الأعداء ، يدفعه إلى ذلك ما فيه من طبيعة الزهو والخيلاء وحب الفخر ، ويعينه

---

(١) المرجع السابق .
(٢) ابن هشام السيرة ٣/١٤٩ .
(٣) ابن هشام السيرة ٣/١٥١ .
(٤) ابن هشام السيرة ٣/١٧٣ .
(٥) ابن هشام السيرة ٣/٨٠ .

عليه ما لآبائه من بنى النجار وقومه من المآثر الغر والمحامد والمجد ، ولم يكن عجيباً أن ينفرد عن صاحبيه كعب وابن رواحة بإطالة هذا الفخر وإجادته وتقصّيه الإلحاح فيه .

وقد كان حسان — إلى هذا — أشد شعراء الإسلام ضراوة بالمشركين ، فالتفتوا إليه ، وجعله شعراؤهم هدفهم ، يقصدونه بالقول ، ويتنقصونه بالهجاء ، فعبد الله بن الزبعرى يقول[١] :

أَبْلِغا حسانَ عنى آيةً فقَريضُ الشعرِ يَشْفِى ذا الغُلَلْ[٢]
كم قتلْنا من كريمٍ سَيِّدٍ ماجدِ الجَدَّيْنِ مِقْدَامٍ بَطَلْ

وأمية بن خلف الجمحى يقول[٣] :

أَلَا من مُبْلِغٌ حسانَ عنى مُغَلْغَلَةً تَدِبُّ إلى عكاظِ
أليس أبوك فينا كان قَيْناً لَدَى القَيْناتِ ،فَسْلًا فى الحِفاظِ[٤]

ويخاطبه أبو سفيان بن الحارث بقوله[٥] :

أَحَسَّانُ إنا يابنَ آكِلَةِ الفَغَا وَجَدِّكَ نَغْتالُ الخُرُوقَ كذلكِ[٦]
فإنك لا فى هِجْرَةٍ إنْ ذَكرتَها ولا حُرُماتِ الدِّينِ أنت بِناسِكِ[٧]

فكان حسان لهم بالمرصاد ، ينقض قولهم ، ويجزيهم بهجائهم ، ولايزداد إلا تعالياً عليهم ، وفخراً بنسبه ، وتيهاً بمجد قومه[٨] .

وبينما نجد حسان على هذا ، نجد كعباً وابن رواحة يفخران بأوائلهما فخراً هادئاً طبيعيًّا فى بعض القول ، على نحو ما قدمنا من شعرهما ، ثم يفخران بحاضر قومهما

---

(١) ابن هشام السيرة ٣/١٤٣ .
(٢) الغلل : جمع غلة وهى حرارة العطش .
(٣) ديوان حسان طبعة البرقوقى ص ٢٤١ .
(٤) مغلغلة : رسالة سائرة مشهورة . القين : الحداد والعبد . الفسل : الرذل النذل الذى لا مروءة له ولا جلد .
(٥) ابن هشام : السيرة ٣/٢٢٢ .
(٦) الفغا : الثمر . نغتال : نقطع . الخروق : جمع خرق وهو الفلاة الواسعة .
(٧) الناسك : المتبع لتعاليم دينه .
(٨) انظر ديوانه القصائد ١١ و ١٦ و ٥٢ وابن هشام : السيرة ١/١٤٤ و ٢٢١ .

فى المكرمات والشجاعة عند اللقاء ، وتصديقهم الرسول وذودهم عن الإسلام والشهادة فى سبيل الله فى أكثر قولهم ، ومن ذلك أيضاً ما قاله كعب يوم خيبر[١] :

ونحن وَرَدْنا خَيْبَرًا وفُروضَهُ ... بكل فَتًى عارِى الأَشاجعِ مِذْوَدِ
جوادٍ لدى الغاياتِ لا واهنِ القوَى ... جَرِىءٍ على الأَعداءِ فى كل مَشْهَدِ
عظيمِ رَمادِ القِدْرِ فى كل شَتْوَةٍ ... ضَرُوبٍ بنَصْلِ المَشْرَفِيِّ المُهَنَّدِ
يَرَى القتلَ مدحاً إنْ أَصاب شهادةً ... منَ اللهِ يَرجــوها وفَوْزًا بأَحمدِ
يَذُودُ ويَحْمِى عن ذِمَارِ محمدٍ ... ويَدْفعُ عنه باللسانِ وباليَدِ
ويَنْصُرُهُ من كل أَمرٍ يَرِيبُــه ... يَجودُ بنَفْسٍ دونَ نفسِ محمدِ
يُصَدِّقُ بالأَنباءِ بالغَيْب مخلِصاً ... يريدُ بذاكَ الفوزَ والعزَّ فى غَدِ

حسان أقوى من معاصريه فخراً

ونجد شاعراً كالنابغة الجعدى ينهج نهجاً آخر فى فخره ، فيعتمد على مفاخره الذاتية ،من الشجاعة والتجربة والحميّة والصبر ومكانه عند الملوك، ثم يتمم فخره بذكر ما لآبائه من المجد والسؤدد ، فيقول[٢] :

وكنتُ غُلاماً أُقاسِى الحرو ... بَ يَلْقَى المُقَاسونَ منى مِرَاساَ
فحِينــاً أُصادِفُ غِرَّاتِها ... وحيناً أُصادِفُ منها شِمَاساَ

ويخاطب معاوية بن أبى سفيان وقد حبس عنه أهله وماله بقوله[٣] :

فإنْ تَأْخذوا أَهلى ومــالى بِظِنَّةٍ ... فإنى لَحَرَّابُ الرجالِ مُجَرَّبُ
صبورٌ على ما يَكْرَهُ المرءُ كلِّهِ ... سِوى الظلْمِ ،إنى إنْ ظُلِمْتُ سأَغْضَبُ

ويقول فى الفخر بتجاربه وأسفاره وذكريات ماضيه[٤] :

خليلَىَّ قد لاقيتُ ما لم تُلاقِيَا ... وسَيَّرْتُ فى الأَحْياءِ ما لم تُسَيِّرَا

---

(١) ابن هشام ٣/٣٦٣ .
(٢) الأغانى ٤/١٢٩ الشعر والشعراء ص ٩٦ .
(٣) الأغانى ٤/١٣٨ .
(٤) جمهرة أشعار العرب ص ٣٠١ .

تَذكرتُ ،والذكرى تَهيجُ لِذِى الهَوَى ومِن عادة المحزون أن يَتَذَكرَا
نَدَامايَ عندَ المُنذِرِ بنِ مُحَرِّقٍ أَرى اليومَ منهمْ ظاهِرَ الأَرضِ مُقْفِرًا[1]

ثم يقول[2] :

ونُنْكِرُ يومَ الرَّوْع أَلوانَ خَيْلِنا من الطعنِ ،حتى تَحْسَبَ الجَوْنَ أَشقَرا
ونحن أُناسٌ لا نُعَوِّدُ خيلَنا إذا ما التقينا أن تَحِيدَ وتَنْفِرَا[3]
وما كان معروفاً لنا أَنْ نَرُدَّهـــا صِحَاحاً ، ولا مُسْتَنْكَرًا أن تُعَقَّرا
بَلَغْنا السَّما مجدًا وجودًا وسُؤْدُدًا وإنا لنرجو فوقَ ذلكَ مَظْهَرَا

أما الحطيئة فكان قليل الحظ من المفاخر ، ولم يكن له ما يطاول الناس به وهو يسير بينهم مستمنحاً يمدح أو يهجو ، ومع هذا فلم يعسر عليه أن يجد أبياتاً يقولها حين اضطرته الحال إلى اصطناع الفخر بشيء مما يفتخر به سواه ، منتسباً أو مدعياً الانتساب إلى من يرى فى الانتماء إليهم مفخرة وشرفاً ، ولكنه فى هذا الموضع لم يستطع أن يغفل الكلام عن المال وجمعه إياه .

قال وقد قدم الكوفة على بنى عوف بن عامر ، وكان يزعم أنه وأهل بيته من بنى عوف هؤلاء ، وهو قول أشبه بالمدح منه بالفخر[4] :

سِيرى أُمَامُ ، فإن المالَ يَجْمَعُهُ سَيْبُ الإلٰهِ وإقبالى وإدبارِى
إلى معاشِرَ منهمْ يا أُمَامُ أَبِى من آل عَوْفٍ بُدُورٍ غيرِ أَسْرارِ
نمشِى على ضوءِ أَحسابٍ أَضَأْنَ لنا ما ضَوَّأَتْ لَيلةُ القَمْراءِ للسّارِى

وقال ينتسب إلى بكر بن وائل[5] :

قَوْمى بنو عَمْرِو بنِ عَوْ فٍ إنْ أَرادَ العِلْمَ عالِمْ

---

(١) المنذر بن محرق : هو والد النعمان بن المنذر الحيرى .
(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٣٠٦ .
(٣) الجون : الأبيض .
(٤) ديوانه ص ١١٨ .
(٥) ديوانه ص ٩٠ .

قومٌ إذا ذَهَبْتَ خَضَا رِمُ منهمُ خَلَفَتْ خَضَارِمْ[1]
لا يَفْشَلونَ ولا تَبِيـ تُ على أُنوفِهمُ الخَوَاطِمْ

ونرى معن بن أوس يفخر بقومه فخراً فيه عزة وتكرم ، فيقول[2] :

مُزَيْنَةُ قَوْمى ، إن سألْتَ فإنهمْ لهم عِزَّةٌ لا تَسْتطيعُ لها نَقْلاَ
ولو سِرتَ حتى مَطْلع الشمس لم تَجِدْ لِقَوْمٍ على قَوْمى ـ وإنْ كَرُمُوا ـ فَضْلا
أَعَفُّ وأَوْفَى بالصَّبَاحِ فَوارساً إذا الخيلُ جالَتْ فى أَعِنَّتِها قُبْلاَ
نقولُ فيُرْضَى قَولُنا ونُعِينُهُ ونحن أُناسٌ نُحْسِنُ القِيلَ والفِعْلاَ

وهو إلى جانب هذا يسمعك قولا جميلا فى الفخر بنفسه إذ يقول[3] :

تَضَمَّنْتُ بالأَحسابِ ثم كَفَيْتُها وهل تُوكَلُ الأَحسابُ إلا إلى مِثْلِى
وإنْ يَجْنِ قَوْمى الحربَ يوماً كَفَيْتُها وما أَنا بالجانى ولا هى من أَجْلِى
أُمِرُّ وأُحْلِى ، والحَياءُ خَلِيقَتِى ولا خيرَ فى مَنْ لا يُمِرُّ ولا يُحْلِى
أَجودُ بمالى دونَ عِرْضِى ، ومَنْ يُرِدْ رَزِيَّةَ عِرْضِى يَعْتَرِضْ دونَهُ بُخْلِى

ولكنه بعد هذا الفخر العريض يعود فيمدح سعيد بن العاص مدحاً بالغاً حد الغلو بما قد كان أزكى له لو أنه جعله فى الفخر بقومه[4] ، وهو قول تغنى حسان بمثله أو بأحسن منه فى سورة فخره بنفسه وبآله. والعجيب ألا نرى بعد هذا أحداً من معاصرى حسان يجاريه فى فخره ، أو يسير فيه على نهجه ، حتى أبناء قبيلته ، وغرس بيئته .

اتصال فخره بنفسه وعشيرته جاهلية وإسلاماً

وهكذا كان حسان متصل الفخر بقومه فى جاهليته وإسلامه ، وسنرى أنه

---

(١) الخضرم : الجواد .
(٢) ديوانه ص ١٩ .
(٣) ديوانه ص ٣٧ .
(٤) ديوانه ص ١٠ .

كان أيضاً فخوراً بنفسه وبخاصة أهله فى جاهليته وإسلامه، استمع إليه فى قصيدة قالها يوم أحد مطلعها[١] :

مَنَعَ النَّوْمَ بالعِشاءِ الهمومُ وخيالٌ إذا تَغُورُ النجومُ

إذ يفخر بخاله وأبيه ونفسه ، فيقول :

إنَّ خالى خطيبُ جَابِيَةِ الجَوْ لانِ عندَ النُّعْمانِ حينَ يَقُومُ
وأَبى فى سُمَيْحَةَ القائلُ الفا صلُ يومَ الْتَقَتْ عليه الخُصومُ
وأَنا الصَّقْرُ عندَ بابِ ابنِ سَلْمَى يومَ نُعْمانُ فى الكُبُولِ مُقيمُ[٢]
وأُبَىٌّ ووافِدٌ أُطْلِقا لى ثم رُحْنا وقُفْلُهُمْ مَحْطُومُ[٣]
وَرَهَنْتُ اليَدَيْنِ عنهمْ جميعاً كلُّ كَفٍّ فيها جُزٌ مَقْسومُ[٤]
وَسَطَتْ نِسْبَتى الذَّوَائِبَ منهمْ كلُّ دارٍ فيها أَبٌ لى عظيمُ[٥]

فهو يفخر بخاله مَسلمةُ بن مخلَّد بن الصامت ، الذى وفد على النعمان بن الحارث الأصغر الغسانى ، وقام عنده خطيباً بجابية الجولان ، وبجده الذى يدعوه أباه — لأنه ليس فى الحقيقة إلا أباً أعلى — « المنذر بن حرام » ، وقد ارتضاه الخصوم من الأوس والخزرج حكماً بينهم عند بئر سُمَيحة يوم سُمَير ، ونزلوا على حكمه ، ويفخر بنفسه ويلقبها « الصقر » ، مزهوًّا بوفوده على النعمان بن المنذر ، وبإطلاقه أسرى قومه كرامة له ، وبتوسط نسبه الذوائب من قومه . وفخره كما ترى قوى ، والقصيدة كلها تجرى على هذا المنهج من العزة والجمال .

وبينما كان الناس يتسابقون إلى الإسلام ، ويتنافسون فيه ، ويتمادحون به ، ويتفاخرون بما استحدثوا له ، كان حسان لا يزال فى عالمه القديم ، يلذه أن يستمع

---

(١) الديوان رقم ٥ .
(٢) سبق شرح هذه الأبيات .
(٣) نعمان بن مالك بن قوقل . وأبى كعب بن قيس . ووافد بن عمرو بن الإطنابة . من الخزرج ، وكانوا أسرى عند النعمان بن المنذر فوفد عليه حسان فأطلق سراحهم .
(٤) رهن اليدين : ضمنهم ، من قولهم : لك يدى بكذا . جز : المراد به جزء .
(٥) وسطت نسبتى الذوائب : كان نسبى أرفع أعاليهم — وهو أوسطهم نسباً . أى أرفعهم .

النعم الذى يطربه ، والرنين الذى يستريح إليه ، من الفخر بنفسه ، والتعظم بما كان لآبائه وفروع دوحتهم .

استمع إليه فى قصيدة أخرى قالها فى يوم أحد أيضاً مطلعها[1] :

أَلا أَبْلِغِ المُسْتَسْمِعينَ بَوقْعَةٍ تَخِفُّ لها شُمْطُ النساءِ القواعدُ[2]

إذ يفخر بفروسيته وحمايته للذمار ، وارتفاعه على مطاعن الأعداء ، وأن لديه من نعم الله منذ شب ما أحاطه بالحاسدين والأعداء ، وأن نسبه العريق ينتمى إليه كل أصل معرق ، ثم يعود للحديث عن زيارته النعمان بن المنذر ، وما لقى عنده من تكريم ، وأنه بذلك قد ضم إلى مجده القديم مجداً حادثاً ، وعن جده خطيب يوم سميحة ، ويذكر عمه خالد بن زيد النجارى ، الذى كان ينحر الإبل فتأكل الناس والطير ، وأخاه أوس بن ثابت شهيد أحد ، فيقول :

ويَعلم أَكْفَائى من الناس أننى أَنا الفارسُ الحامى الذِّمَارَ المُناجِدُ[3]
وأَنْ ليس للأَعداء عندى غَمِيزةٌ ولا طاف لى منهمْ بِوَحْشِيَ صائدُ[4]
وأَنْ لم يَزَلْ لى منذُ أَدركْتُ كاشِحٌ عدوٌّ أُقاسيهِ وآخرُ حاسدُ[5]
فمـــا منهما إلاَّ وأَنى أَكِيلُهُ بمثلٍ له مِثْلَينِ أَو أَنا زائدُ[6]
فإنْ تَسْأَلِى الأَقْوامَ عنى فإننى إلى مَحْتِدٍ تَنْمِى إليه المَحَاتِدُ[7]
أَنا الزائرُ الصقرَ ابنَ سَلْمى وعندَهُ أُبَىٌّ ونُعمانٌ وعَمْرو ووافِدُ
فأَوْرَثَنَا مجدًا ، ومَن يَجْنِ مِثلَها بحيثُ اجتناها يَنقلبْ وهو حامدُ
وجَدِّى خطيبُ الناسِ يومَ سُمَيْحةٍ وعمى ابنُ هندٍ مُطْعِمُ الطيرِ خالدُ

---

(١) الديوان رقم ٧ .
(٢) شمط : جمع شمطاء وهى من اختلط البياض بالسواد فى شعرها . القواعد : جمع قاعد وهى المرأة الكبيرة المسنة .
(٣) الذمار : مايلزمك حمايته . المناجد : المقاتل .
(٤) الغميزة : موطن الضعف .
(٥) الكاشح : الذى يضمر العداوة .
(٦) أكيله : أكيل له .
(٧) المحتد : الأصل .

فإذا ألمّ بإلمامة خاطفة بما صنعوا للإسلام، فقال :

ومنا قَتيلُ الشِّعْبِ أَوسُ بنُ ثابتٍ شهيدًا ، وأَسْنَى الذِّكْرَ منه المَشاهِدُ[1]

اجتذبته مرة أخرى أشباح ذلك المجد إليها . فقال :

وفى كل دارٍ رَبَّةٌ خَزْرَجيَّةٌ وَأَوْسِيَّةٌ لى مِنْ ذُرَاهُنَّ والدُ[2]

فمهما أَقُلْ مما أُعَدِّدُ لا يَزَلْ على صِدقه من كل قَوْمِىَ شاهدُ

فخره بلسانه وسلاحه . أخذه من القرآن

حتى إذا انتهى من هذا إلى الحديث عن شعره وقوافيه غلا فى الفخر ، وبلغ منه الزهو ، وأسمعك من قوله عجبا :

لكل أُناسٍ مِيسَمٌ يَعْرِفونهُ ومِيسَمُنا فينا القَوافِى الأَوَابِدُ[3]

متى مانَسِمْ لا يُنْكِر الناسُ وَسْمَنا ونَعْرِفْ به المجهولَ ممن نُكايِدُ

تَلُوحُ به تَعْشُو عليه وُسُومُنا كما لاح فى سُمْرِ المِتانِ المَوَارِدُ[4]

فيَشْفِينَ من لا يُستطاع شفاؤُه ، ويَبْقَيْنَ ما تَبْقَى الجبالُ الخوالدُ[5]

ويُشْقِينَ من يَغْتَالُنا بعداوة ويُسْعِدْنَ فى الدنيا بنا مَن نُساعِدُ

إذا ما كَسَرْنا رُمْحَ رايةِ شاعرٍ يَجِيشُ بنا ما عندَنا فنُعَــاوِدُ[6]

فحسان يرتفع فى الفخر بقوله :

متى ما نَسِمْ لا يُنْكر الناسُ وَسْمَنا ونَعْرِفْ به المجهولَ ممن نُكايِدُ

---

(١) أسنى ذكره : رفعه . المشاهد : جمع مشهد وهو محضر الناس والمراد هنا مشاهد الحرب .

(٢) داربة : ضخمة جامعة .

(٣) الميسم : المكواة وشبهها ، وأثرها فى الموسوم . القوافى الأوابد : القصائد المشهورة التى يبقى ذكرها .

(٤) المتان : ظهور الأرض وجوانبها المشرفة . الموارد : الطرق .

(٥) المراد تشفيه من جهله وتردّه عنه .

(٦) يجيش بنا : يغلى ويتحرك فى صدورنا .

ارتفاع السموءل فى قوله :

وَنُنْكِرُ إِنْ شئنا على الناسِ قَوْلَهُمْ ولا يُنْكِرونَ القولَ حينَ نقولُ

ويمضى يصف ما يصيب ذلك الشاعر المنهزم من شَباة لسانه ، مستمدًا معانيه من القرآن ، مقتبساً بعض ألفاظه ، حين يقول :

يكونُ إذا بُثَّ الهجاءُ لقومِهِ ولاح شِهابٌ من سَنا الحربِ واقِدُ

كأَشْقَى ثمودٍ إذ تَعَاطَى لِحَيْنِهِ خَصِيلَةَ أُمِّ السَّقْبِ ،والسَّقْبُ وارِدُ[1]

فولَّى فأَوْفَى عاقِلاً رأسَ صخرةٍ نما فَرْعُها ، واشتد منها القواعدُ[2]

فقال : أَلاَ فاستَمْتِعُوا فى دياركمْ فقد جاءَكم ذِكْرٌ لَكُم ومَواعِدُ

ثلاثةَ أَيامٍ من الدهر لم يَكُنْ لَهُنَّ بتصديق الذى قال رائدُ[3]

فهو يأخذ من القرآن تشبيه الشاعر المكايد له ، حين يجعل قومه عرضة لهجاء حسان ، حتى إذا لاح شهاب من سنا الحرب واقد ولى الأدبار ، وترك قومه يَصْلَوْن نار الهجاء ، بأشقى ثمود وهو قُدَار بن سالف من قوم صالح ، حين عقر الناقة ثم ولى هارباً ، تاركاً قومه يصلون العذاب الأليم .

وقول حسان « كأشقى ثمود » مأخوذ من قوله تعالى فى سورة الشمس : (إذ انبعث أشقاها) وقوله : « تعاطى » من قوله تعالى فى سورة القمر : (فتعاطى فعقر) وقوله : « فقال : ألا فاستمتعوا فى داركم » من قوله تعالى فى سورة هود : (فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) .

وقد ظل حسان كثير الفخر بشعره ، عظيم الاعتزاز بشاعريته ، فهو الذى يهدد ضرار بن الخطاب شاعر قريش بقصائده ، ويمن عليه بالكف عنه كرامة لأبى وهب المخزومى خال عبد الله بن عبد المطلب ، معلناً أن الشعر بضاعتهم . فيهم يزكو ، وعنهم يصدر ، قائلا[4] :

---

(١) أشقى ثمود : هو قدار بن سالف الذى عقر ناقة النبى صالح . تعاطى لحينه : أقدم لهلاكه . الخصيلة : كل عصبة فيها لحم غليظ . أم السقب : الناقة ، والسقب ولدها عند وضعه .

(٢) فولى فأوفى عاقلا رأس صخرة : أى فاعتصم برأس صخرة .

(٣) الرائد هنا : المنذر .

(٤) الديوان رقم ١٠٥ .

فلولا أبو وَهْبٍ لمَرَّتْ قصائدٌ على شَرَفِ البَلْقاءِ يَهْوِينَ حُسَّرَا
فإنا ومن يُهْدِى القصائدَ نَحْوَنا كَمُسْتَبْضِع تَمْرًا إلى أهل خَيْبَرا

وهو الذى يقول[١] :

قد رامَنِى الشعراءُ فانقلَبوا منى بأَفْوَقَ ساقطِ النَّصْل[٢]
ويَصُدُّ عنى المُفْحَمونَ كما صَدَّ البِكارَةُ عن حَرى الفَحْل[٣]
يَخْشَوْنَ من حسانَ ذا بَرَدٍ هَزِمَ العَشِيَّةِ صادقَ الوَبْل[٤]

ويقول[٥] :

أَهْدَى لهم مِدَحِى قَلبٌ يُؤازِرُهُ فيما يُحِبُّ لِسانٌ حائكٌ صَنَعُ[٦]

ويقول[٧] :

لسانى صارِمٌ لا عيبَ فيهِ وبحْرِى لا تُكَدِّرُهُ الدِّلاءُ

ويعود فيجمع ألواناً من الفخر بنفسه وبنسبه فى قوله[٨] :

وَرِثْتُ الفَعَالَ وَبَذْلَ التِّلا دِ ، والمَجْدَ عن كابِرٍ كابِرِ
وحَمْلَ الدِّيَاتِ وفَكَّ العُنَا ةِ ، والعِزَّ فى الحَسَبِ الفاخِرِ
بكُلِّ متينٍ أَصَمِّ الكُعُوبِ وأَبيضَ ذى رَوْنَقٍ باتِرِ[٩]

---

(١) الديوان رقم ١٢٨ .
(٢) الأفوق : السهم المنكسر الفوق .
(٣) المفحمون : العاجزون عن قول الشعر . البكارة : جمع بكر وهو الفتى من الإبل كالغلام من الناس . حرى الفحل : ناحيته .
(٤) ذا برد : يشبه شعره بسحاب ذى برد له هزيم ومطر غزير .
(٥) الديوان رقم ٢٣ .
(٦) حائك صنع : حاذق يحسن صنع الكلام .
(٧) الديوان رقم ١ .
(٨) الديوان رقم ١٢٢ .
(٩) أصم الكعوب : غليظها . والكعب : العقدة بين الأنبوبتين من القصب ونحوه والمراد الرمح والمراد بالأبيض الباتر : السيف .

وبيضاءَ كالنَّهْرِ فَضْفَاضَةٍ تَثَنَّى بِطُولٍ على الناشرِ[١]
بها نَخْتَلِي مُهَجَ الدَّارِعِيـ ـنَ إذا نَوَّرَ الصبحُ للناظرِ[٢]
إذا استَبَقَ الناسُ غاياتِهِمْ وَجَدْتَ الزِّبَعْرَى مع الآخِرِ
وما يُجْعَلُ العَيُّ وَسْطَ النَّدِيِّـ ـمِ كالمِحْرَبِ المِصْقَعِ الشاعرِ[٣]

الهجاء

دواعي الهجاء

تقدم أن نهضة الشعر القديم كانت مصاحبة للحروب ، وأن الفخر والهجاء كانا أبرز فنون الشعر فيها ، وأن أيام العرب قد اقترنت بذكر جماعة من كبار شعراء الجاهلية والمخضرمين ، وأن حروب الأوس والخزرج كانت من أهم الأسباب التى دعت إلى نشأة المناقضة ، وأن حسان قد دخل فيما دخل فيه معاصروه من ذلك ، وكان يجمع بين الفخر بقومه والهجاء لأعدائهم . كما تقدم أنه كان يطيل الفخر حين يريد الهجاء ، وكأنه يرى السبيل إلى الحط من شأن عدوه ذلك الفخر والاستعلاء ، أو أنه كان يعرف من نفسه تقصيراً عن بلوغ غرضه بالهجاء فاستعان عليه بالفخر . وذكرنا فى تأييد ذلك ذهابه إلى الخنساء يستعين بها على هجاء قيس ابن الخطيم[٤] .

كثرته وأسبابها

ونعود فنقول : إن المرء حين يعرض هجاء حسان بعد إسلامه يرى نفسه أكثر اطمئناناً إلى صحة هذه القضية ، فقد قضت البيئة والملابسات الخاصة التى تحيط

---

(١) بيضاء هى الدرع . فضفاضة : واسعة . الناشر : اللابس .
(٢) نختلى : ننزع .
(٣) العى : العاجز عن الأمر وعن البيان . الندى : مجتمع القوم . المحرب : الشجاع المتمرس بالحرب . المصقع : البليغ الماهر .
(٤) انظر الهجاء فى الفصل السابق .

بحسان أن يقول الشعر الهجائى فى جاهليته وإسلامه ، فهجا أعداء قومه قبل الإسلام فى سبعة عشر موضعاً من شعره ، ولكنه كان فى الإسلام محامى الدعوة ووزير الدعاوة ، يرد هجاء المشركين ، ويقود حملة التأديب عليهم ، ويشهر بمثالبهم ، ويرميهم بما يفدحهم ، وكانت المعركة حامية طويلة ، وجبهات القتال متشعبة ، والمحاربون فيها فرق مختلفة ؛ فكثر هجاؤه لهم حتى بلغ تسعاً ومائة قطعة[1] ، فرقها بالعدل بينهم ، فخص أصحاب الباع الطويل فى العناد والأذى بالنصيب الأوفى من ذلك الهجاء .

هجاؤه موجه إلى أعداء الإسلام

لكن حسان لم يكن ينبعث فى هجائه عن طبيعة هجّاءة حاقدة حاسدة ، ونفس ساخطة مظلمة ترتاح بفطرتها إلى الهجاء ، إذ لو كان الهجاء من طبعه لرمى به كل من يعترضه من الناس ، ولسلطه على كثير ، وأرسله لأتفه الأسباب ، لا يبالى أين يقع ، ولا من يصيب من الأقوام ، ولتلمس لذلك العلل ، كما كان يتلمس الأسباب للفخر بقومه ونسبه وذات نفسه ، وكما كان يصر على الزج بذلك الفخر حتى فى غير موضعه من الكلام . لكننا على العكس من هذا نجد هجاءه الإسلامى كله مصوباً إلى المشركين وأعداء الدين ، منصبًّا عليهم محصوراً فيهم ، لم يحِد به عنهم إلى أحد من غيرهم ، كأنه إنما كان يؤدى واجباً نيط به ، وينفذ خطة رسمت له .

وإذاً فقد تخلص حسان بالإسلام من ماضى عداوته ، وبرئ من عصبيته . فهل كان فى فنه الهجائى ينبعث أيضاً عن مذهب جديد ، ومنهج إسلامى رشيد ؟

هجاؤه تغلب فيه النزعة الجاهلية

ظل حسان فى هجائه تغلبه النزعة الجاهلية ، فقد هجا المشركين بالنقص من صفات المروءة وبالمثالب الجاهلية فى نحو تسعين قطعة من شعره الهجائى ، وهجاهم بلؤم الأصول وخسة الأنساب فى ستين ، ثم هجاهم بالكفر والضلال وترك الدين

---

(١) الجدولان ٢ و ٤ .

فى ثمان عشرة[١] ، فلم يستطع أن يستبدل بموازينه ومعاييره الجاهلية غيرها إسلامية ، وظلت نفسه الباطنة توحى إليه أن الأنساب والأحساب ومآثر الأسلاف هى مناط الشرف ، وموئل العزة والكرامة ، وأن المرء قد يضار بهزالها ورقتها أكثر مما يضره هزال دينه ورقته ، وربما أوحى إليه ذلك بيئته ، وربما أوحى به بصره وحكمته ، ولكن الرسول على كل حال قد وجهه هذه الوجهة نفسها ،فقال له : « فاذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ؛ ثم اهجهم وجبريل معك »[٢] .

ولقد كان هذا توجيهاً سديداً ، وكان ذلك المذهب هو المذهب الذى يجب أن يتبع . فقد كان المشركون فى جاهليتهم يرون ما هم عليه حقًّا ، وهم عنه راضون ، فلا يضيرهم أن يعيروا به . كما كانوا يتعاظمون بالآباء والمفاخر القديمة ، فتعييرهم بالنقص منها يصيب مقاتلهم ويحز فى صدورهم .

هجاؤه المشركين بالكفر . تصحيح رأى صاحب الأغانى

على أنه يحسن أن نشير إلى تساهل أبى الفرج فى رأيه ، حين يقول عن منهج حسان فى هجاء قريش[٣] : « فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ؛ فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ، فكان فى ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة » . فقد تبين مما تقدم أن حسان قد هجاهم بالكفر والضلال أيضاً فى ثمان عشرة قطعة من شعره ، فأوجعهم بذلك فى الجاهلية وفى الإسلام .

---

(١) هى بالديوان بالأرقام ١١ و ١٤ و ١٥ و ٢٧ و ٤٤ و ٤٥ و ٥٥ و ٥٦ و ٦١ و ٨٤ و ٩٦ و ١٧٥ و ١٨٣ و ١٨٩ و ٢١٤ و ٢١٥ و ٢١٧ و ٢٢٧ .

(٢) الأغانى ٤/٤ و ٥ . الاستيعاب ١/١٢٨ . أسد الغابة ص ٤ . دلائل النبوة جـ ٦ .

(٣) الأغانى ٤/٤ .

من هم الذين كان يهجوهم

وقد ذكرنا أن هجاءه كان فى تسع ومائة قطعة من شعره الإسلامى، الذى لا يزيد على ثلاث وسبعين ومائة قطعة ، فرّقه فى أعداء الإسلام على قدر ما بدا منهم من عداوته ، فكان هجاؤه لأبى سفيان بن الحارث فى ثمان ، ولابن الزبعرى فى سبع ، وللحارث بن هشام المخزومى فى ست ، ولعمرو بن العاص فى اثنتين ، ولهبيرة بن أبى وهب المخزومى فى واحدة ، ولأبى سفيان بن حرب وزوجه هند بنت عتبة فى ست ، ولبنى مخزوم فى ست عشرة ، ولبنى سهم وبنى جمح فى سبع ، ولقريش وبعض بطونها ومن تصدى لأذى النبى منها فى أربع وعشرين ، عدا من هجاهم من سائر القبائل المعادية[١] .

ونعرض الآن جملة من هجائه يتقرر بها ما قدمناه .

قال حسان فى فتح مكة يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب[٢] :

ألا أبلغْ أبا سُفيان عنى ... فأنتَ مجوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ[٣]

بأن سيوفَنا تَركَتْكَ عبدًا ... وعبدُ الدارِ سادَتُها الإِمَاءُ[٤]

هَجَوْتَ محمدًا فأَجبتُ عنهُ ... وعندَ اللهِ فى ذاكَ الجزاءُ

أتهجُوهُ ولَستَ له بكُفْءٍ ... فشَرُّكُما لخَيْرِكُما الفِداءُ

فمَن يَهْجو رسولَ اللهِ منكمْ ... ويَمدَحُهُ ويَنْصُرُهُ سَواءُ

فذمه بالجبن والضعف ، وعيره ما أصابه من ذل بسيوفهم حتى غدا أهون من الإماء ، وأنكر عليه تعرضه لهجاء الرسول وليس بندٍّ له .

إنصافه الخصوم

وقد جاوز حد الإنصاف حين قال : « فشركما لخيركما الفداء » وهو يعلم أيهما

---

(١) انظر الجدول رقم ٤ .

(٢) الديوان رقم ١ .

(٣) مجوف نخب هواء : جبان ضعيف لا قلب له .

(٤) وعبد الدار سادتها الإماء : يريد أن يقول إنه أذل من الإماء .

خير وأيهما شر ، حتى قالوا إن هذا أنصف بيت قالته العرب ، فقد ترك الحكم فى خير الرجلين وشرهما لمن يشاء ، ومنهم المهجو نفسه ، لأنه قال ذلك وهو على ثقة المتحدى المؤمن بصدقه ، وبتصديق الناس إياه ، فليس هناك من يجهل أو يدعى الجهل بخير الرجلين وشر الرجلين ، وإن لجّت به الخصومة كل لجاج ، وهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى : (وإنَّا أوْ إيّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أو فى ضَلَالٍ مُبِين) . وقد هجاهم بهوان شأنهم ، الذى بلغ منه أنه لا يُحَسُّ هجاؤهم ، ولا ينتفع بمدحهم ونصرهم .

تصحيح

وقد عرض « العقاد » للعداوة بين الهاشميين والأمويين فى فصل عقده لذلك[1] ، فذكر أن المهجو بهذا الشعر هو « أبو سفيان بن حرب » ولعل ذلك من السهو أو سبق القلم ، فكون المهجو هنا أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أمر لا يجهله أحد .

هجاء موجع واعتذار حسن

وهجا الحارث بن هشام المخزومى ، وقد فر يوم بدر ، وعيّره ما أصاب قومه فيها بقصيدته التى مطلعها[2] :

تَبَلَتْ فؤادَكَ فى المنامِ خَرِيدَةٌ تَسْقِى الضَّجِيعَ ببارِدٍ بَسَّام

فتخلص من الحديث فى عاذلته إلى غرضه ، فقال :

إنْ كنتِ كاذبةَ الذى حَدَّثْتِنِى فَنَجَوْتِ مَنْجَى الحارثِ بنِ هِشامِ
تَرَكَ الأَحِبَّةَ أَنْ يقاتِلَ دونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمِرَّةٍ ولِجَامِ[3]
مَلَأَتْ به الفَرْجَيْنِ فارْمَدَّتْ بِهِ وثَوَى أَحِبَّتُهُ بِشَرٍّ مُقَامِ[4]
وبَنُو أَبِيهِ ورَهْطُهُ فى مَعْرَكٍ نَصَرَ الإِلٰهُ بِهِ ذَوِى الإِسْلام
طَحَنَتْهُمُ ـ واللهُ يُنْفِذُ أَمْرَهُ ـ حربٌ يُشَبُّ سَعِيرُها بِضِرَامِ[5]

---

(١) انظر كتاب « أبو الشهداء الحسين بن على » ص ٤٣ .

(٢) الديوان رقم ٣ .

(٣) الطمرة : الفرس الكثيرة الجرى .

(٤) الفرجان : ما بين يديها وما بين رجليها . وملأت الفرجين : أى أنها لسرعة جريها لا ترى فرجة بين يديها ورجليها ، بل ترى كأنها ملتقية دائماً ، ارمدت به : أسرعت .

(٥) يشب : يتقد . سعيرها : نارها الملتهبة . الضرام : ما توقد به النار .

لولا الإلٰهُ وجرْيُها لَتَرَكْنَهُ ... جَزَرَ السِّباعِ ودُسْنَه بِحَوامِي[١]
من كلِّ مَأسورٍ يُشَدُّ صِفَادُهُ ... صَقْرٍ إذا لاقَى الكتيبةَ حامِ[٢]
ومُجَدَّلٍ لا يَسْتَجيبُ لِدَعْوَةٍ ... حتى تزولَ شَوامِخُ الأَعلامِ[٣]
بالعارِ والذلِّ المُبَيِّنِ إذْ رَأَوْا ... بِيضَ السيوفِ تَسُوقُ كلَّ هُمامِ
فسَلَحْتَ ، إنكَ من مَعاشِرَ خانةٍ ... سُلْحٍ إذا حَضَر القتالُ لئامِ[٤]
فَدَعِ المكارمَ ، إنَّ قومَكَ أُسْرَةٌ ... من وُلْدِ شَجْعٍ غيرُ جِدِّ كِرامِ[٥]
ومُرنَّحٍ فيه الأَسِنَّةُ شُرَّعاً ... كالجَفْرِ غيرِ مُقابَلِ الأَعمامِ[٦]

إنصافه الخصوم أيضاً

وتراه مع هجائه الحارث وقومه وتحقيره لهم لم يضن بإنصافهم حين وصف أسراهم ، فذكر أن أحدهم كالصقر عند اللقاء ، يقظ جرىء يحمى حماه ، وحين وصفهم وهم يساقون فقال : « بيض السيوف تسوق كل هُمام » .

وهذه القصيدة من جيد شعر حسان ، وقد أوجع هجاؤه فيها الحارث ، فقال يجيبه معتذراً من فراره[٧] :

اللهُ يَعلمُ ما تركتُ قِتالَهُمْ ... حتى عَلَوْا فَرَسِى بأَشْقَرَ مُزْبِدِ[٨]
وعَلِمْتُ أَنى إنْ أقاتِلْ واحدًا ... أُقْتَلْ ، ولا يَضْرُرْ عَدُوِّىَ مَشْهَدِى

---

(١) جزر السباع : لحم تأكله السباع . الحوامى : جانب الحافر من يمينه وشماله .
(٢) صفاده : قيده . الصقر : الصائد والسيد ، وصقر صفة لمأسور على بناء يشد للمجهول أو فاعل يشد على بنائه للمعلوم .
(٣) مجدل : ملقى على الأرض . شوامخ الأعلام : الجبال العالية .
(٤) سلح : انطلقت بطنه .
(٥) شجع : بطن كانت تعير بنو مخزوم بالانتساب إليه .
(٦) مرنح : مائل كمن تدور به الأرض . الجفر : الجدى إذا عظم كرشه . مقابل الأعمام : كريم الأصل من جهتين .
(٧) سيرة ابن هشام ٣/١٩ ، الأغانى ٤/١٧ .
(٨) الأشقر المزبد : الدم يعلوه الزبد .

فَصَدَدْتُ عنهمْ والأَحبةُ فيهِمُ طمَعاً لهمْ بعِقابِ يومٍ مُرْصَدِ[١]

قال محمد بن سلام : لما صار ابن الأشعث إلى «رُتَبيل» صاحب سجستان تمثل بقول الحارث بن هشام هذا ، فقال رتبيل : يا معشر العرب . حسنتم كل شيء فحسن حتى الفرار[٢] . وأبو عبيدة يرى أن هذه الأبيات أحسن ما قيل فى لاعتذار من الفرار[٣] .

هجاء بارع

وهجاؤه أبا سفيان بن الحارث يمثل تلك البراعة التى أفصح عنها حين قال له الرسول : « فكيف تهجوهم وأنا منهم » ؟ فأجابه : لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين . إلى ما أصاب على يدى أبى بكر رضى الله عنه من معرفة بأنساب القوم ، وبَصَر بمداخلها ودخائلها . انظر فى قوله له[٤] :

إنَّ السَّنامَ وإنْ طالتْ شَظِيَّتُهُ يَعْتادُ ذِرْوَتَهُ الأَدْواءُ والعَمَدُ[٥]
فاللؤمُ فيكَ وفى سَمْراءَ ما بَقِيتْ وفى سُمَيَّةَ حتى يَنْفَدَ الأَبَدُ[٦]

تره قد عدل عن سبه بآبائه إلى سبه بأمهاته ، كما فعل فى قوله[٧] :

لقد عَلِم الأَقوامُ أَنَّ ابنَ هاشِمٍ هو الغُصْنُ ذو الأَفْنانِ لا الواحدُ الوَغْدُ[٨]
وما لَكَ فيهِمْ مَحْتِدٌ يَعْرِفونَهُ فدُونَكَ فالصَقْ مثلَ ما لَصِقَ القُرْدُ[٩]
وأَبلغْ أَبا سُفيانَ عنّى رسالةً فما لَكَ من إصدارِ عَزْمٍ ولا وِرْدُ

---

(١) مرصد : مرتقب .
(٢) الأغانى ٤/١٧ .
(٣) العقد الفريد ١/١٦٤ — ١٦٥ .
(٤) الديوان رقم ٢٠٤ .
(٥) الأدواء : الأمراض . العمد : انفضاخ سنام البعير من الداخل وظاهره صحيح .
(٦) سمراء : أم الحارث . سمية : أم أبيه .
(٧) الديوان رقم ٢٢٦ .
(٨) ابن هاشم : يقصد النبى . الواحد الوغد : يقصد أبا سفيان . والوغد : الدنىء .
(٩) المحتد : الأصل . القرد : جمع قراد وهو دويبة معروفة . والملصق : الدعى فى القوم وليس منهم .

وإنَّ سَنامَ المجدِ من آلِ هاشمٍ بَنُو بنتِ مخزومٍ ووالدُكَ العَبْدُ[١]
وما وَلَدَتْ أَفْناءُ زُهْرَةَ مِنْكُمُ كريماً ، ولم يَقْرَبْ عَجَائِزَكَ المَجْدُ[٢]
ولستَ كعباسٍ ولا كابنِ أمِّهِ ولكن هَجِينٌ ليس يُورَى له زَنْدُ[٣]
وأنتَ زَنِيمٌ نِيطَ فى آلِ هاشمٍ كما نِيطَ خَلْفَ الراكبِ القَدَحُ الفَرْدُ[٤]
وإنَّ امرأً كانتْ سُمَيَّةُ أُمَّهُ وسَمْراءُ مَغْلوبٌ إذا بَلَغَ الجَهْدُ[٥]

فجعل ما شانه من نقص إنما لحقه من أمهاته لا من آبائه ، وكذلك فعل معه فى شعر آخر[٦] . وقد عنّ له مرة أن ينسب نقصه كله إلى تقصيره عن غايات الكرام ، وإلى ما فيه من خساسة ذاتية ، فقال يخاطبه[٧] :

أَبوكَ أَبٌ حُرٌّ ، وأُمُّكَ حُرَّةٌ وقد يَلِدُ الحُرَّانِ غيرَ نَجِيبِ
فلا يَعْجَبَنَّ الناسُ منكَ ومنهما فما خَبَثٌ من فِضَّةٍ بعجيبِ

كما هجاه بالكفر والخيانة فقال[٨] :

ولستَ بِذِى دينٍ ولا ذى أَمانةٍ ولستَ بحُرٍّ من لُؤَىٍّ ولا كَعْبِ

فأنت ترى حسان حين هجا أبا سفيان بن الحارث قد أتاه من كل جانب ، وتنقصه فى نسبه . وفى نفسه ومروءته ، وفى دينه وأمانته .

ويعود إلى الحارث بن هشام يعيره فراره عن أخيه أبى جهل عمرو بن هشام

---

(١) بنت مخزوم : فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم . وبنوها هم أبو طالب وعبد الله والزبير بنو عبد المطلب .
(٢) بنو زهرة من قريش أخوال الرسول . أفناء زهرة : فروعها المتشعبة المنتشرة .
(٣) عباس بن عبد المطلب ، وابن أمه : أخوه ضرار . وأمهما من النمر بن قاسط ، الهجين : من أبوه عربى وأمه أمة . لا يورى له زند : كناية عن لؤمه وشحه .
(٤) الزنيم : الملحق بقوم ليس منهم . نيط بهم : ألحق بهم : القدح الفرد : يعلقه الراكب خلفه .
(٥) سمية وسمراء سبق التعريف بهما .
(٦) الديوان الأرقام ٢٢١ و ٢٢٧ و ٢٢٩ .
(٧) نهاية الأرب ٣/٢٨٧ .
(٨) الديوان رقم ٢٢٧ .

قتيل بدر ويهجن نسبه بقوله[١] :

والقومُ خلفَكَ قد تَرَكْتَ قتالَهُمْ ... ترجو النَّجاءَ فليسَ حينَ ذهابِ
هلاَّ عَطَفْتَ على ابنِ أمِّكَ إذ ثَوَى ... قَعْصَ الأَسِنَّةِ ضائعَ الأَسْلابِ[٢]
عَجِلَ المليكُ له فأَهْلَكَ جَمْعَهُ ... بِشَنَارِ مُخْزِيَةٍ وسُوءِ عَذابِ[٣]
لو كنتَ ضِئْءَ كريمةٍ أَبْلَيْتَهَا ... حُسْنَى ، ولكنْ ضِئْءُ بِنتِ عُقابِ[٤]

ويكر عليه كرة أخرى فينال منه فى نفسه ، وفى نسبه ، قائلا[٥] :

ياحارِ إنْ كنتَ امرَأً مُتَوَسِّعاً ... فافْدِ الأُلَى يَنْصِفْنَ آلَ جَنابِ[٦]
أَخَواتُ أُمِّكَ قد عَلِمْتَ مكانَها ... والحَقُّ يَفهمُهُ ذَوُو الأَلْبَابِ
إنَّ الفَرافِصَةَ بنَ الاحْوَصِ عندَهُ ... شَجَنٌ لأُمِّكَ من بَنَاتِ عُقَابِ[٧]
أَجْمَعْتَ أَنكَ أَنتَ أَلأَمُ مَن مَشَى ... فى فُحْشِ مُومِسَةٍ وزَهْوِ غُرابِ
وكذاكَ وَرَّثَكَ الأَوَائلُ أَنهمْ ... ذَهَبُوا ، وصِرْتَ بِخِزْيَةٍ وعذابِ[٨]
فوَرِثْتَ والدَكَ الخِيانَةَ والخَنَا ... واللُّؤْمَ عندَ تَقَايُسِ الأَحْسابِ[٩]
وأَبَانَ لؤْمُكَ أَنَّ أُمَّكَ لم تكنْ ... إلا لِشَرِّ مَقارِفِ الأَعرابِ[١٠]

فانظر كيف اجتهد وتقصى حتى أبان عن نسبه المدخول وخلقه المذموم وطبعه اللئيم ، ليبلغ من ذلك بهجائه إلى ما يريد .

---

(١) الديوان رقم ١٥١ .
(٢) قعص الأسنة : القعص أن يضرب الرجل بالسلاح فيموت مكانه .
(٣) الشنار : أقبح العار .
(٤) ضئء : نسل . أبليتها حسنى : صنعت حسنا . عقاب : عبد كان لبنى تغلب ، وكانت بناته إماء وبعضهن كان عند الفرافصة الكلبى . وأم الحارث من نسل إحدى هذه الإماء .
(٥) الديوان رقم ١٨٠ .
(٦) متوسع : ذو سعة . ينصفن : يخدمن . جناب : هو جناب بن عبد الله الكلبى .
(٧) تقدم الكلام عن الفرافصة وإمائه من بنات عقاب . شجن : هم وحاجة .
(٨) الخزية : الخزى والعار .
(٩) الخنا : الفحش . تقايس الأحساب : تفاضلها وتسابقهم .
(١٠) مقارف : المقرف . من كانت أمه عربية لا أبوه .

ويصنع بابن الزبعرى مثل ذلك ، فيقول[١] :

فلا تَفْخَرْ فقد غَلَبَتْ قديماً ... عليك مَشَابِهٌ من آلِ حام[٢]

فلستَ إلى الذَّوَائِبِ من قُصَيٍّ ... ولا فى عِزِّ زُهْرَةَ إذ تُسَامِى[٣]

ولا فى الفَرْعِ من أبناءِ عَمْرٍو ... ولا فى فَرْعِ مَخْزومِ الكِرامِ[٤]

فأَقْصِرْ عن هجاءِ بنى قُصَيٍّ ... فقد جَرَّبْتَ وَقْعَ بَنى حَرامِ[٥]

ويقول له[٦] :

فلا تَفْخَرْ بقومٍ لستَ منهمْ ... فإنَّ قبيلَكَ الهُجْنُ اللئامُ

إذا عُدَّ الأَطايِبُ من قُرَيْشٍ ... تَقَاعَدَكُمْ إلى المَخْزَاةِ حَامُ

قَسَامَةُ أُمُّكُمْ إنْ تَنْسُبُوها ... إلى نَسَبٍ فتَأْنَفه الكرامُ[٧]

حتى إذا هرب ابن الزبعرى إلى نجران عند فتح مكة لاحقه بأبيات يقول فيها[٨] :

لا تَعْدَ مَنْ رَجُلاً أَحَلَّكَ بُغْضُهُ ... نَجْرانَ فى عَيْشٍ أَحَذَّ لئيمِ[٩]

بُلِيَتْ قناتُك فى الحروبِ فأُلْفِيَتْ ... خَمَّانَةً جَوْفاءَ ذاتَ وُصُومِ

غَضَبُ الإلٰهِ على الزُّبَعْرَى وابنِهِ ... وعذابُ سوءٍ فى الحياة مُقيمِ

فسار هذا الشعر حتى وافى ابن الزبعرى ، فعاد إلى الرسول تائباً مسلماً ، معتذراً اعتذاراً جميلا[١٠] . ويعود إلى عمرو بن العاص ، فيؤكد هجاءه له باللؤم وخسة

---

(١) الديوان رقم ١٧٣ .

(٢) حام : أحد أولاد نوح يريد بذلك نفيه عن العرب الساميين وإلحاقه بالسود أبناء حام .

(٣) قصى : هو ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، وزهرة : هو ابن كلاب بن مرة .

(٤) عمرو : هو ابن هصيص بن كعب بن لؤى . ومخزوم ، هو ابن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى ، والفرع : المجد والشرف يريد حسان أن ينفيه عن هذه البطون تحقيراً له .

(٥) بنو حرام : قوم حسان .

(٦) الديوان رقم ١٧٤ .

(٧) تقاعدكم : قعد بكم ، المخزاة : الذل والعار ، قسامة : هى أم سهم وجمح ابنى عمرو بن هصيص بن كعب ابن لؤى . وكانت أمة سوداء .

(٨) الديوان رقم ١٤٢ .

(٩) أحذ : قليل . خمانة : رخوة رديئة . وصوم : عيوب .

(١٠) شعره فى الاعتذار بديوان حسان شرح البرقوقى ص ٣٦٠ .

الأصل ، ويضيف إلى ذلك هجاءه بالكفر ، كما فعل بأبى سفيان بن الحارث من قبل قائلا[١] :

زَعَمَ ابنُ نابغةَ اللئيمُ بأَننا ... لا نَجْعَلُ الأَحسابَ دونَ محمدِ
أَموالنا ونفوسُنا من دونِهِ ... من يَصْطَنِعْ خيرًا يُثَبْ ويُحَمَّدِ
فِتْيانُ صِدْقٍ كاللُيوثِ مَساعِرٌ ... مَنْ يَلْقَهُمْ يومَ الهِياجِ يُعَرِّدِ[٢]
قومُ ابنِ نابغةَ اللئامُ أَذِلَّةٌ ... لا يُقْبِلونَ على صَفِيرِ المُرْعِدِ[٣]
وبَنَى لهمْ بيتاً أَبوكَ مُقَصِّرًا ... كفرًا ولؤْماً بئسَ بيتُ المَحْتِدِ

ويقول فى أبى جهل[٤] :

لقد لَعَنَ الرحمنُ جمعاً يقودُهُمْ ... دَعِيٌّ بَنِى شَجْعٍ لِحَرْبِ محمدِ
مَشُومٌ لَعِينٌ كان قِدْماً مُبَغَّضاً ... يُبيِّنُ فيه اللؤْمَ مَنْ كان يَهْتَدِى
فَدَلاَّهُمُ فى الغَىِّ حتى تَهافَتُوا ... وكان مُضِلاً أَمْرُهُ غيرَ مُرْشِدِ[٥]

فيذمه بالضلال والبعد من الرشاد ، ويقتبس من ألفاظ القرآن فى قوله : « فدلاهم فى الغى » . ويقول فيه أيضاً[٦] :

سَمَّاهُ مَعْشَرُهُ أَبا حَكَمٍ ... واللهُ سَمَّاهُ أَبا جَهْلِ
أَبْقَتْ رِياسَتُهُ لمَعْشَرِهِ ... غَضَبَ الإِلٰهِ وذِلَّةَ الأَمْلِ[٧]
إِنْ يَنْتَصِرْ يَدْمَى الجَبِينُ ، وإِنْ ... يَلْبَثْ قليلاً يُودَ بالرَّحْلِ[٨]

---

(١) الديوان رقم ٥٦ .
(٢) مساعر : جمع مسعر وهو من يشعل نار الحرب . يعرد : يحجم ويفر من خصمه .
(٣) صفير المرعد : أى أنهم لجبنهم يفرون من صفير الصافر .
(٤) الديوان رقم ٤٥ .
(٥) تهافتوا : تساقطوا .
(٦) الديوان رقم ١٢٨ .
(٧) الأمل : الرجاء .
(٨) إن ينتصر لا يلبث أن يكب لوجهه ضعفاً ، وإن يلبث فى قوم يسرق رحالهم .

ويهجو أمية بن خلف [١] وأبيّ بن خلَف الجمحيين [٢] وأبا سفيان بن حرب [٣] وهُبَيرة بن أبي وَهب المخزومى [٤] وعُتبة بن أبي وقاص [٥] وسعد بن أبي السَّرْح [٦] وضِرار بن الخطاب [٧] وأبا لهب [٨] وصَفْوان بن أمية [٩] وبنى العوام [١٠] ، وبنى عدى بن كعب [١١] وبنى زهرة [١٢] وبنى جمح [١٣] وبنى سهم [١٤] وبنى مخزوم [١٥] وبنى المغيرة منهم [١٦] وبنى أسد بن خزيمة [١٧] وهذيلا [١٨] وقريشاً [١٩] وغيرهم . هجاء كله فى سبيل الدعوة الدينية ، والدفاع عن الإسلام ، والمنافحة عن رسول الله .

هجاؤه بين الجاهلية والإسلام ومذاهبه

وهكذا أكثر حسان من الهجاء إكثاراً لم يكن له منه بد ، فما ينهض للرد على شعر المشركين إلا شعر مثله ، تسفه به أحلامهم ، وتفل عزائمهم ، ويوهن شأنهم ، وترد به دعاويهم ، وتناهض به حججهم ، واتبع فيه مذهباً جاهليًّا فى جملته . يعتمد

---

(١) الديوان الرقمان ٥١ و ٥٢ .
(٢) رقم ٥٥ .
(٣) الأرقام ١٦ و ١٩٥ و ٢١٤ .
(٤) رقم ٦١ .
(٥) رقم ٥٨ .
(٦) رقم ٥٩ .
(٧) رقم ١٠٥ .
(٨) رقم ٢١٧ .
(٩) الرقمان ٥٣ و ٥٤ .
(١٠) الرقمان ٢٠٥ و ٢٠٦ .
(١١) رقم ١٨٥ .
(١٢) الرقمان ١٨٦ و ٢٠٨ .
(١٣) الرقم ١٧٤ .
(١٤) الرقم ١٨٢ .
(١٥) الرقمان ٥ و ٤٩ .
(١٦) الأرقام ٤٦ و ٤٨ و ١٢٧ و ١٢٩ و ١٣٠ و ١٧٩ و ١٨١ و ١٨٣ و ١٩٤ .
(١٧) الرقمان ٩٩ و ٢٠٧ .
(١٨) الأرقام ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ١٢٠ .
(١٩) الأرقام ٥ و ٧٦ و ١٤٠ ١٧٥ .

على الطعن فى الأنساب ، والرمى بالمثالب الجاهلية ، والنقص من الفضائل وصفات المروءة ، والتعيير بالنقائص التى يعترف بها العصر ، إلى ماهجاهم به من الشرك والكفر والضلال ، وأنذرهم فيه سوء المنقلب .

وقد أفاد من المدرستين الهجائيتين فى الجاهلية والإسلام ، فبعد أن كان فى جاهليته مؤثراً للشتم الصريح ، قليل الاحتفاء بالهجاء الموجع الذى يبرز المهجو فى معرض التهكم والاستخفاف ، أصبح بارعاً فى هجائه . يتجه به إلى التهكم بالمهجو ، وإبرازه فى صور سافرة مهينة ، وكان من أسباب براعته قدرته على خلق تلك الصور الفنية الهازلة وابتكارها ، معتمداً فى ذلك على ذكاء وبصيرة هجائية ، وروح فكهة تنظر إلى الأشياء نظرة ساخرة ، قادرة على استخلاص شبهها بألوان من تلك الصور المضحكة التى يعرضها ، وقد ضمن له ذلك النجاح والشهرة ، وقامت مكانته فى الإسلام إلى حد بعيد عليه .

صور من هجائه . أثره . جريانه مجرى الأمثال

استمع إليه يهجو المغيرة بن شعبة الثقفى فيقول[1] :

لَو انَّ اللؤمَ يُنْسَبُ كان عبدًا ... قبيحَ الوجهِ أعورَ من ثَقيفِ[2]
تركتَ الدِّينَ والإيمانَ جهلاً ... غداةَ لَقِيتَ صاحبةَ النَّصِيفِ
وراجَعْتَ الصِّبَا وذَكَرْتَ لَهْوًا ... من الأَحشاءِ والخَصْرِ اللطيفِ

فانظر كيف أقام منه تمثالا للؤم مجسداً ، وحدد ملامح ذلك التمثال وصفاته ، فزاد فى بشاعته بقسوة النص على تلك العيوب الصارخة : « عبداً . قبيح الوجه ، أعور » وكيف تهكم به فى شعر فكه ، قد ضمن ذيوعه ما فيه من خفة الروح .

ثم استمع إليه يهجو بنى عابد بن عمرو بن مخزوم[3] :

سأَلتُ قريشاً كلَّها ، فشِرَارُها ... بنو عابدٍ ، شاه الوجوهُ لِعابدِ[4]

---

(١) الديوان رقم ٢٧ .
(٢) النصيف : الخمار وكل ما غطى الرأس ومن البرد ما له لونان .
(٣) الديوان رقم ٥٠ .
(٤) شاه الوجوه : قبحت .

إذا قَعَدوا وَسْطَ النَّدِيِّ تَجَاوَبوا تَجَاوُبَ عِدَّانِ الرَّبيعِ السَّوَافِدِ[١]
وما كان صَيْفِيٌّ لِيُوفِيَ ذِمّةً قَفَا ثعلبٍ أعيَا ببعض المَوَارِدِ[٢]

وتلك صورة عجيبة بالغة فى إضحاكها وسخريتها ، هابطة بالمهجوين إلى الدرك الأسفل ، تمثلهم متحلّقين فى ناديهم ، يتجاوبون بتلك الصيحات الحبيسة على تلك الصور المعروفة تجاوب التيوس السوافد .

ثم يهجوهم بقوله[٣] :

مُبِينُ الغَىِّ لا يَعْيَا عليهِ ويَعْيَا بَعْدُ عن سُبُلِ الرشادِ
ففيمَ تقولُ يَشْتِمُنِى لئيمٌ كخِنزيرٍ تَمَرَّغَ فى رَمادِ

ويهجو الحِمّاس من بنى الحارث بن كعب فيقول[٤] :

أَمّا الحِمَاسُ فإنى غيرُ شاتِمِهِمْ لا هُمْ كِرامٌ ولا عِرْضِى لهم خَطَرُ[٥]
قومٌ لئامٌ أَقَلَّ اللهُ عِدَّتَهُمْ كما تَسَاقَطَ حولَ الفَقْحَةِ البَعَرُ[٦]
كأَن ريحَهُمُ فى الناس إذْ بَرَزُوا رِيحُ الكلابِ إذا ما بَلَّها المَطَرُ
أَولادُ حامٍ فلا تَلْقَى لهم شَبَهاً إلا التُّيُوسَ على أَكتافِها الشَّعَرُ
لم يُنْبِتُوا فَرْعَ خيرٍ يُذْكَرون بهِ حتى يُنَبِّتَ عُودَ النَّبْعَةِ الكَمَرُ[٧]
إنْ سابَقُوا سُبِقُوا ، أَو نافَروا نُفِرُوا أَو كاثَرُوا أَحَدًا من غيرِهم كُثِرُوا[٨]

---

(١) عدان : أصله عتدان جمع عتود وهو الجدى المستكرش . السوافد : التى تنز و وتثب .
(٢) صيفى : هو صيفى بن أبى رفاعة المخزومى ، أسر ببدر فلما أبطأ فداؤه أطلق على أن يبعث به فلم يفعل . قفا ثعلب : يريك منه إدبار الثعلب حين يعييه أمر .
(٣) الديوان رقم ١٢٦ .
(٤) الديوان رقم ١٨٩ .
(٥) خطر : مثل وعدل .
(٦) الفقحة : حلقة الدبر .
(٧) النبعة : واحدة النبع ، شجر جبلى لا نار فيه . الكمر : النخل . أى أنه يستحيل أن ينبتوا فرع خير .
(٨) نافروا : فاخروا فى الحسب . نفروا : غلبوا .

شِبْهُ الإِمَاءِ فلا دِينٌ ولا حَسَبٌ لوقامَرُوا الزَّنْجَ عن أَحسابِهِمْ قُمِرُوا[١]
تَلْقَى الحِمَاسِيَّ لا يَمْنَعْكَ حُرْمَتَهُ شِبْهَ النَّبِيطِ ،إذا استَعْبَدْتَهُمْ صَبَرُوا

فيرسم لهم جملة من الصور الساخرة المهينة ، يحقر بها من شأنهم ما شاء ، ويلحق بهم ألواناً باقية من المعايب والمثالب .

ويهجو بنى الحارث بن كعب رهط النجاشى الشاعر ، فيقول[٢] :

حارِ بنَ كَعْبٍ أَلا الأَحلامُ تزجُرُكُمْ عنى وأَنتمْ من الجُوفِ الجَمَاخِيرِ[٣]
لا عَيْبَ بالقومِ من طولٍ ولا عِظَمٍ جِسمُ البِغالِ وأَحلامُ العصافيرِ
كأَنهمْ قَصَبٌ جُوفٌ مَكاسِرُهُ مُثَقَّبٌ فيه أَرواحُ الأَعاصيرِ[٤]
دَعُوا التَّخَاجُؤَ وامْشُوا مِشْيَةً سُجُحاً إنَّ الرجالَ ذَوُوعَصْبٍ وتَذْكيرِ[٥]
لا يَنفعُ الطُّولُ من نُوكٍ القُلوبِ ، ولا يَهْدِى الإلهُ سبيلَ المَعْثَرِ البُورِ[٦]

فيشرّق قوله فيهم ويغرب ، ويجرى فى الناس مجرى الأمثال السائرة ، حتى ضج القوم فزعاً ، وسعوا إليه يسألونه العفو عنهم . وربما حاول حسان أن يستفيد من نظم القرآن ، فأخذ قوله : « لا عيب بالقوم من طول ولا عظم » من قوله تعالى : « وإذا رأيتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ». ويهجو هُذيلا فيقول[٧] :

قَوْمٌ تَوَاصَوْا بأَكلِ الجارِ كلُّهُمُ فخَيْرُهُمْ رَجُلاً والتَّيْسُ مِثْلانِ
لو يَنْطِقُ التيسُ ذو الخُصْيَيْنِ وَسْطَهُمُ لكان ذا شَرَفٍ فِيهِمْ وذا شَانِ[٨]

---

(١) قمروا : غلبوا .
(٢) الديوان رقم ١٠٣ .
(٣) الجوف : جمع أجوف وهو الواسع الجوف . الجماخير : جمع جمخور وهو الواسع الجوف .
(٤) جوف : جوفاء فارغة . أرواح : جمع ريح . الأعاصير جمع إعصار وهو الريح تهب من الأرض فتثير الغبار وتدور به كالعمود مرتفعة نحو السماء .
(٥) التخاجؤ : التبختر مع إبراز العجز . سجح : سهلة . عصب : شدة .
(٦) نوك : حمق . البور : الهالكون الخاسرون .
(٧) الديوان رقم ٦٦ .
(٨) وفى الحيوان للجاحظ ١/٢٦٨ :

قوم تواصوا بأكل الجار بينهم فالكلب والشاة والإنسان سيان

وقد استشهد به على أكل هذيل لحوم الناس .

ويقول فيهم[١] :

لو خُلِقَ اللُّؤْمُ إنساناً يُكَلِّمُهُمْ ... لكان خَيْرَ هُذَيْلٍ حين يَأْتيها
تَرَى من اللُّؤْمِ رَقْماً بينَ أَعْيُنِهِمْ ... كما كَوَى أَذْرُعَ العَانَاتِ كاوِيها[٢]
تَبْكِي القُبورُ إذا مامات مَيِّتُهُمْ ... حتى يَصِيحَ بِمَنْ فى الأَرضِ دَاعِيها
مِثْلُ القَنَافِذِ ، تَخْزَى أَن تُفَاجِئَها ... شَدَّ النهارِ . ويُلْقَى الليلَ سَارِيها[٣]

وهو قول غنى بحسنه عن أن نضيف إليه من عندنا بياناً ، وفى كل بيت منه لون من الهجاء ومعنى مبتكر ، افتن حسان فى إبداعه ، وبلغ به الغاية فى إيجاعه ، وتلك منه مقدرة أن يستوفى البيت معنى من الهجاء ، يستقل به عما قبله وعما بعده ، وهو أبلغ وقعاً وأعمق أثراً ، إذ يكون الهجاء بقصره ووضوحه وعجيب صوره أيسر حفظاً ، وأسير ذكراً ، وأشد بالقلب علوقاً .

وقد أخذ الحكَمُ الخِضْرى البيت الثانى من هذه الأبيات فقصر عنه ، إذ يقول :

أَلَمْ تَرَ أَنهمْ رُقِمُوا بِلُؤْمٍ ... كمارُقِمَتْ بأَذْرُعِها الحَمِيرُ

ويقول فى هجاء هوازن بن منصور[٤] :

أَبْلِغْ هَوَازِنَ أَعلاها وأَسفلَها ... أَنْ لَسْتُ هاجِيَها إلا بما فيها
قُبَيْلَةٌ أَلْأَمُ الأَحْياءِ أَكرَمُهَا ... وأَغْدَرُ الناسِ بالجيران وَافِيها
وشَرُّ مَنْ يَحْضُرُ الأَمصارَ حاضِرُها ... وشَرُّ بادِيَةِ الأَعْرابِ بادِيها
تَبْلَى عِظامُهُمُ إمّا هُمُ دُفِنُوا ... تحتَ الترابِ ولا تَبْلَى مَخَازِيها
كأَن أَسْنانَهُمْ من خُبْثِ طِعْمَتِهِمْ ... أَظْفَارُ خاتِنَةٍ كَلَّتْ مَواسِيها

فهذا القول الموجع يحمل كل بيت منه معنى من معانى الهجاء الممض الأليم ،

---

(١) الديوان رقم ٦٧ .
(٢) رقم : علامة . العانات : جمع عانة وهى القطيع من حمر الوحش .
(٣) شد النهار : فى أعلاه وفى أثنائه .
(٤) الديوان رقم ١٠١ .

وقد صورهم فى بيته الأخير بصورة قذرة خبيثة تعافها النفوس ، كما فطن إلى حقيقة هامة ، وهى أن هجاء الناس بما فيهم ، وتسليط الأضواء الكاشفة على معايبهم . حتى تعلن عن نفسها ، ويبدو مستورها . أبلغ ذمًّا ، وأنقع سمًّا ، فأعلن فى بيته الأول أنه آخذهم به. وهجاؤه هذا أشبه بهجائه السابق فى هذيل . منهجاً ووزناً وقافية .

وهجا سلامة بن رَوح بن زَنباع الجذامى ، وكان يلى عشور الروم بالشام ، فقال[1] :

سَلَامةُ دُمْيةٌ فى لَوْحِ بابٍ هُبِلْتَ . أَلاَ تُعِزُّكما تُجِيرُ[2]
تَقَلَّدْ أَيْرَ زَنْباعٍ ورَوْحٍ سلامةُ ، إنه بِئْسَ الخفيرُ[3]
ولا يَنْفكُّ—ما عاش ابنُ رَوْحٍ— جُذَامِيٌّ بِذِمَّتِهِ خَتُورُ[4]

فجعله دمية معلقة فى باب يتلاعب بها الصبيان وعابر والسبيل ، وعيره عجزه ، وجعله مصدر الخيانة . حتى إن الجذاميين لا ينفكون خونة ما عاش ، ورسم له تلك الصورة الفاحشة البالغة إلى أقصى حدود الهوان بما قلده من عورات آبائه .

اختلاف منهجه الهجائى جاهلية وإسلاماً

وهو منهج يختلف عن منهجه القديم . لأن حسان كان فى جاهليته شاعر القبيلة أو شاعر الوطن القومى كما يقول الأستاذ الشايب ، فكان أكثر شعره فيها . وكان هجاؤه فى سبيلها . ولم يكن صاحب غاية أخرى أو مأرب شخصى يتخذ هجاءه مطية له ووسيلة إليه ، كما كان شأن بعض معاصريه من أمثال الحطيئة والأعشى ، وكان أكثر هجائه فى الأوس وهم بنو عمومته ، فلم يكن غريباً أن نجد فى بعض شعره وشعر غيره مما قيل فى حرب الأوس والخزرج مجالا للتعفف والعتب والملاينة . إبقاء على الرحم ورعياً لحقوق القرابة[5] . ولكنه بعد أن أسلم وقف شعره على الجهاد

---

(١) الديوان ١٠٩ .
(٢) هبلت : فقدت ، وثكلتك أمك : تجير : تحمى .
(٣) الخفير : الحارس الحفيظ .
(٤) ختور : خائن خداع .
(٥) انظر ص ٢٥٨ ، ٢٦٥ من هذا الكتاب .

فى سبيل الله هجاء ورثاء ومدحاً ، وإذا كان غير حسان من قومه ومن شعرائهم يجاهد فى الله بسيفه وبنفسه فيقتلون ويقتلون، فقد كان حسان مجاهداً بشعره ولسانه فحسب ، فكان لجهاده هذا صفة الحرب وطبيعتها ، وكان هجاؤه الكافرين فى معدنه طعناً وضرباً وتجريحاً وتقتيلا ، وقد ندبه الرسول لذلك ، وخلاه لهذا الميدان ، فصال فيه وجال ، ولم يكن بينه وبين المشركين سبب للإبقاء على حرمة أو رعاية رحم ، فالأنساب غير مشتجرة ، والذى يجاهد المسلمون له كان كل شىء فى قلوبهم ، وفوق كل شىء فى حياتهم ، ذلت له العصبيات وأذيلت الحرمات وقطعت الأرحام ، وأصبح مثلهم الأعلى فى جهادهم أن يدين لهم عدوهم أو يخر صريعاً تحت أقدامهم ، لذلك كان حسان مع المشركين عنيفاً قاسياً ، لا تتفتح أمامه ثغرة لهجائهم إلا انطلق هائجاً مائجاً ، واندفع ثائراً فائراً ، ناسياً جلال الإسلام ووقار السن ، لا يخالط هجاءه عتب ، ولا تشوبه بُقيا ، ولا يمازجه لين أو رفق .

تفرده دون صاحبيه بالعنف والإفحاش

ومع ما كان يتوخاه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة من هجو الكافرين والنيل منهم فقد كان منهجهما فيه يختلف عن منهج حسان ، فكعب وإن أكثر من هجائهم بالأيام والوقائع والمآثر والمثالب ، وابن رواحة وإن أطال تعييرهم الكفر وإنذارهم سوء المنقلب ، فقد كان هجاؤهما على هذا أقل شدة وأخف حدة ، لأنهما كانا يعلنان عن ذات نفسيهما ، ويشفيان غيظ صدورهما عن طريق آخر ، هو الحرب والقتال ، وكان لهما فى الغزوات والوقائع وخوض المعارك متنفس ذو شأن ، ولم يقذعا فى هجائهما ولم يفحشا ، ولم يذكرا ما يستحى منه[1] ، ولم يبال حسان أن يذكر من ذلك ما يريد ، حتى اضطر ابن هشام فى كثير من المواضع بسيرته إلى أن يقول : إنه ترك بعض شعره لأنه أقذع فيه .

---

(١) انظر شعرهما الهجائى بسيرة ابن هشام ٣/١٥ و ١٣٩ و ١٤٦ و ١٥١ و ١٥٤ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٧١ و ٢١٢ و ٢٦٧ و ٢٧٣ و ٢٧٥ و ٢٧٦ و ٣٠٠ و ١٩٨ و ٢٢١ .

تفرده دون جميع شعراء أحُد بالإفحاش

بل إن شعراء المشركين والمسلمين يشتبكون فى معركة حول يوم أحد ، وهى من أشد معارك الشعر بين المتخاصمين ؛ لما كان لذلك اليوم من أثر بعيد فى المعسكرين ، فترى هُبَيرة بن أبى وَهْب [١] وابن الزبعرى [٢] وضرار بن الخطاب [٣] وعمرو بن العاص [٤] من المشركين ، وكعب بن مالك [٥] ، وابن رواحة [٦] وحسان [٧] يتقاولون ويتهاجون ، فينفرد حسان بالإفحاش فى القول ، دون سائر المسلمين والمشركين . فبينا يقول هبيرة [٨] :

ثُمَّتَ رُحْنا كأَنا عارِضٌ بَرِدٌ ... وقام هامُ بَنِى النجارِ يَبْكِيها [٩]
كأَنَّ هامهُمُ عندَ الوَغَى فِلَقٌ ... من قَيْضِ رُبْدٍ نَفَتْهُ عن أَدَاحِيها [١٠]
أَو حَنْظَلٌ ذَعْذَعَتْهُ الريحُ فى غُصُنٍ ... بالٍ تَعَاوَرَهُ منها سَوَافِيها [١١]

ويقول ابن الزبعرى [١٢] :

ليتَ أَشياخِى بِبَدْرٍ شَهِدُوا ... جَزَعَ الخَزْرَجِ مِن وَقْعِ الأَسَلْ [١٣]
حينَ حَكَّتْ بِقُباءٍ بَرْكَها ... واستَحَرَّ القتلُ فى عَبْدِ الأَشَلْ [١٤]

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/١٣٦ .
(٢) ابن هشام : السيرة ٢/١٤٣ و ١٤٨ .
(٣) ابن هشام : السيرة ٣/١٤٧ و ١٥٢ .
(٤) ابن هشام : السيرة ١/١٥١ .
(٥) ابن هشام ٣/١٣٩ و ١٤٦ و ١٥١ .
(٦) ابن هشام ٣/١٧١ .
(٧) ابن هشام ٣/١٣٨ و ١٤٤ و ١٤٩ .
(٨) ابن هشام ٣/١٣٧ .
(٩) عارض برد سحاب فيه برد . الهام جمع هامة طائر كانت العرب تزعم أنه يخرج من رأس القتيل .
(١٠) الهام الرءوس جمع هامة . القيض : قشر البيض الأعلى . الربد : النعام بين البياض والسواد . الأداحى : جمع أدحية حفرة يبيض فيها النعام .
(١١) ذعذعته : حركته . تعاوره : تتداوله . سوافيها : رياحها التى تسفى التراب والرمال .
(١٢) ابن هشام ٣/١٤٤ .
(١٣) الأسل : الرماح .
(١٤) البرك : الصدر . استحر : حمى وكثر . عبد الأشل : يقصد عبد الأشهل من الأنصار .

ثُمَّ خَفُّوا عندَ ذاكُمْ رُقَّصاً ... رَقَصَ الحَفَّانِ يَعْلُو فى الجَبَلْ[١]
فقَتَلْنا الضِّعْفَ من أَشْرافِهِمْ ... وعَدَلْنا مَيْلَ بَدْرٍ فاعتَدَلْ
بِسُيوفِ الهِنْدِ تَعْلُو هَامَهُمْ ... عَلَلاً تَعْلُوهُمُ بعدَ نَهَلْ[٢]

ويقول ضرار[٣] :

وحيثُ انْثَنَى مُصْعَبٌ ثاوِياً ... بضَرْبَةِ ذى هَبَّةٍ سَلْجَجِ[٤]
بِأُحْدٍ وأَسْيافُنا فيهمُ ... تَلَهَّبُ كاللهبِ المُرهَجِ
غَداةَ لَقِيناكُمُ فى الحَدِيـ ... ـدِ كأُسْدِ البَرَاحِ فلم تُعْنَجِ[٥]
فدُسْنَاهُمُ ثَمَّ حتى انْثَنَوْا ... سِوَى زاهِقِ النَّفْسِ أو مُحْرَجِ[٦]

ويقول عمرو بن العاص[٧] :

فما رَاعَهُمْ بالشرِّ إلا فُجاءَةً ... كَرَادِيسُ خَيْلٍ فى الأَزِقَّةِ تَمْرُقُ[٨]
كأن رُءُوسَ الخَزْرَجِيِّينَ غُدْوَةً ... لَدَى جَنْبِ سَلْعٍ حَنْظَلٌ مُتَفَلِّقُ[٩]

ويقول كعب[١٠] :

فَخَرْتَ علىّ ابنَ الزِّبَعْرَى وقدسَرَى ... لكمْ طَلَبٌ مِن آخِرِ الليلِ مُتْبِعُ
فَسَلْ عنكَ فى عُلْيَا مَعَدٍّ وغيرِهـا ... مِنَ الناسِ ، مَنْ أَحْزَى مَقاماً وأَشْنَع

---

(١) رقصا : سراعا . الحفان : صغار النعام .
(٢) العلل : الشرب الثانى . والنهل : الشرب الأول أى ضربا بعد ضرب .
(٣) ابن هشام ١٤٧/٣ .
(٤) السلجج : الذى يطعن طعناً سريعاً .
(٥) البراح : المتسع من الأرض . تعنج : تكف وتنصرف .
(٦) زاهق النفس : القتيل . المحرج : المضيق عليه .
(٧) ابن هشام ١٥١/٣ .
(٨) كراديس : جماعات . تمرق : تخرج .
(٩) سلع : جبل بالمدينة .
(١٠) ابن هشام ١٤٢/٣ .

ومَنْ هوَ لم تَتْرُكْ له الحَرْبُ مَفْخَرًا ... ومَنْ خَدُّه يومَ الكَرِيهَةِ أَضْرَعُ[1]
شَددْنا بحَوْلِ اللهِ والنصر شَدَّةً ... عليكمْ ، وأَطْرافُ الأَسِنَّةِ شُرَّعُ
عَمَدْنا إلى أهلِ اللِّواءِ، ومَنْ يَطِرْ ... بذِكرِ اللواءِ فهو فى الحَمْدِ أَسرَعُ
فخانُوا وقد أَعْطَوْا يَدًا وتَخاذَلُوا ... أَبَى اللهُ إلا أَمْرَهُ وهو أَصْنَعُ

ويقول ابن رَواحة[2] :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عنى لُؤَيًّا ... فبَعْدَ اليوْمِ دَائِلَةٌ تَدُولُ[3]
نَسِيتُمْ ضَرْبَنَا بِقَلِيبِ بَدْرٍ ... غداةَ أَتاكُمُ المَوْتُ العَجِيلُ
غَداةَ ثَوَى أَبو جَهْلٍ صريعاً ... عليهِ الطَّيْرُ حائمةٌ تَجُولُ
أَلاَ يا هندُ فابْكِى لا تَمَلِّى ... فأَنْتِ الوَالِهُ العَبْرَى الهَبُولُ[4]
أَلاَ يا هندُ لا تُبْدِى شَمَاتاً ... بحمزةَ إنَّ عِزَّكُمُ ذَلِيلُ

بينا هؤلاء يقولون كذلك إذا بحسان يقول[5] :

نَضَعُ الخَطِّىَّ فى أَكْتافِكُمْ ... حيثُ نَهْوِى عَلَلاً بعد نَهَلْ
تَخْرُجُ الأَضْيَاحُ من أَسْتَاهِكُمْ ... كَسُلاَحِ النِّيبِ يَأْكُلْنَ العَصَلْ[6]
إِذْ تُوَلُّونَ على أَعقابكُمْ ... هُرَّباً فى الشِّعْبِ أَشْباهَ الرَّسَلْ[7]
إِذْ شَدَدْنَا شَدَّةً صادقَةً ... فأَجَأْناكُمْ إلى سَفْحِ الجَبَلْ[8]

---

(١) أضرع : ذليل .
(٢) ابن هشام ٣/١٧١ .
(٣) الدائلة : الحرب .
(٤) الواله : الفاقد . العبرى : الكثيرة البكاء . الهبول : الفاقد .
(٥) ابن هشام ٣/١٤٤ .
(٦) الأضياح : جمع ضيح وهو اللبن المخلوط بالماء . النيب : جمع ناب وهى الناقة المسنة . وسلاحها : تلقيه من أدبارها . العصل : نبات تأكله الإبل فتخرجه أحمر .
(٧) الرسل : الإبل المرسلة بعضها فى إثر بعض .
(٨) أجأناكم : ألجأناكم .

فى قُرَيْشٍ مِنْ جُموعٍ جُمِّعُوا مِثْلَماجُمِّعَ فى الخِصْبِ الهَمَلْ[1]
نحنُ لا أمثالُكُمْ وُلْدَ اسْتِها نَحْضُرُ الناسَ إذَا البَأْسُ نَزَلْ

نفرده دون معاصريه بالقسوة والإفحاش

فإذا وضعنا الأمر فى دائرة أعم وأشمل، وابتعدنا به عن نطاق الجهاد الإسلامى. وما كان بين شعراء المسلمين والمشركين من مزاحفة ومدافعة ، وجدنا حسان أيضاً على عنفه وقسوته وقصده إلى الإقذاع والإفحاش ، لا يبقى على مودة ، ولا يرعى لمن يهجوه حرمة . ورأينا غيره ألطف منه منهجاً ، وأرق حاشية ، وأكثر ذكراً للآصرة . والتماساً للرجعى ؛ فما أبعد الفرق بين هجائه لامرأته ، بل سبها وشتمها حين تغاضبا بقوله[2] :

وَيْلُ امِّ شَعْثاءَ شيئاً تَسْتَغِيثُ بِهِ إذا تَجَلَّلَها النَّعْظُ الأَفَاقِيعُ
كأَنهُ فى صَلاَها وَهِى بَارِكَةٌ ذِرَاعُ آدَمَ من نَاطَاءَ مَنْزُوعُ[3]

وبين جميل قول مَعْنِ بن أوْس لامرأته « أمّ حُقَّة » فى عتبه وترفقه وقد طالبته بالطلاق[4] :

كأَنْ لم يَكُنْ يا أُمَّ حُقَّةَ قبلَ ذا بِمِيطَانَ مُصْطَافٌ لنا ومَرَابِعُ[5]
وإذْ نحنُ فى غَضِّ الشَّبابِ وقدْ عَسَى بنا الآنَ إلا أَنْ نُعَوَّض جَازِعُ[6]
ولو آذَنَتْنَا أُمُّ حُقَّةَ إذْ بنا شَبابٌ ، وإذْ لمَّا تَرُعْنا الرَّوَائِعُ[7]
لقُلْنا لها بِينِى بِلَيْلٍ حَمِيدَةً كذاكَ بلا ذَمٍّ تُؤَدَّى الصنائِعُ

---

(١) الهمل : الإبل المهملة ترسل فى المرعى دون راع .
(١) الديوان رقم ٧٢ .
(٢) سبق شرح البيتين .
(٤) الأغانى ١٠/١٦٠ .
(٥) ميطان : من جبال المدينة .
(٦) عسا : كبر ، وعسى : قرب . الجازع : الذى يجزع الطريق أى يقطعه ، والجازع خشبة تعترض بين شيئين ليحمل عليها غيرها .
(٧) آذنه : علمه .

وما ألطف قول ابن أوس هذا فى تهكمه بابن الزبير ، حين قدم عليه بمكة فلم يلق عنده ما يحب[١] :

رمانا أبو بَكْرٍ وقد طال يومُنا بِتَيْسٍ من الشَّاءِ الحِجازِىّ أَعْفَرِ
وقال اطْعَمُوا منه ، ونحن ثلاثةٌ وسبعونَ إنساناً ، فيالُؤْمَ مَخْبَرِ
فقلنا له : لا تَقْرَبَا فأَمامَنَا جِفَانُ ابنِ عباسِ العُلا وابنِ جعفر
وكُنْ آمناً ، وارفُقْ بتَيْسِكَ . إنهُ لهُ أَعْنُزٌ يَنْزُو عليها ، وأَبْشِرِ

ولن ترى عند حسان من الرفق والتحلم مثلما ترى فى قول معن من ميميته الطويلة[٢] :

وَذِى رَحِمٍ قَلَّمْتُ أظفارَ ضِغْنِهِ بحِلْمِىَ عنهُ ،وهو لَيس له حِلْمُ

أو قوله فى ابن أخ له جنى عليه جناية[٣] :

فلولا أَنَّ أُمَّ أَبيهِ أُمِّى وأَنْ مَنْ قد هجاهُ فقد هَجانِى
وأَنَّ أَبِى أَبوهُ ، لَذَاقَ مِنِّى مَرَارَةَ مِبْرَدِى ، ولَكانَ شَانِى
إذًا لأَصابهُ مِنِّى هِجَــاءٌ يَذِلُّ به الرَّوِىُّ على لِسانِى

ولن تجد عنده من ذلك مثلما تجد عند الحطيئة على جفوته ، إذ يضيف إلى هجاء الزِّبْرِقان قوله[٤] :

إنى نَهَانِى أَنْ أَدُمَّ لكَ ماجِدُ الجَدَّينِ فاخِرْ
قَرْمٌ لِقَرْمٍ ماجِدٍ ما إنْ يُنَافِرُهُ المُنافِــرْ
هُوَ مَدَّ بَيْتَ المَجْدِ حيـ ـثُ بَناهُ شَمَّاسٌ وعامِرْ

وإذ يعرض ببنى عوف بن كعب رهط الزبرقان . ويمدح بتغيضاً فيقول[٥] :

---

(١) الأغانى ١٠/١٥٨ .
(٢) ديوانه ص ٢ .
(٣) ديوانه ص ٢٤ .
(٤) ديوانه ص ١٨ .
(٥) ديوانه ص ٢٦ .

ولمّا كنتُ جارَكُمُ أَبيْتُمْ وشَرُّ مَوَاطِنِ الحَسَبِ الإِباءُ
ولمّا كنتُ جارَهُمُ حَبَوْنِى وفيكُمْ كانَ لو شئتمْ حِبَـاءُ
ولمّا أَنْ مَدَحْتُ القومَ قلتُمْ هَجَوْتَ ، وما يَحِلُّ لكَ الهِجاءُ
فلم أَشْتِمْ لكمْ نَسَباً ، ولكنْ حَدَوْتُ بحيثُ يُسْتَمَعُ الحِداءُ

ألوان من إفحاشه

كان حسان يفحش فى هجائه ، ويتلمس لذلك مواطن الضعف من أعدائه ، لا يرعى لهم حقًّا ولا حرمة ، فما حفظوا لغيرهم إلاًّ ولا ذمة .

فمن ذلك قوله يهجو عمرو بن العاص السَّهْمِىّ[١] :

أَمّا ابنُ نابغةَ العَبْدُ الهَجِينُ فقدْ أَنْحَى عليه لساناً صارماً ذَكَرَا[٢]
ما بالُ أُمِّكَ رَاغَتْ عندَ ذِى شَرَفٍ إلى جَذِيمَةَ لمّا عَفَّتِ الأَثَرَا[٣]
ظَلَّتْ ثلاثاً وملْحَانٌ مُعَانِقُها عندَ الحَجُونِ ، فما مَلاَّ ولا فَتَرَا[٤]

وقوله فى هجاء بنى المغيرة من مخزوم[٥] :

ذَهَبَتْ قريشٌ بالعَلاءِ وأَنتمُ تَمْشُونَ مَشْىَ المُومِساتِ الخُرَّعِ[٦]
فَدَعُوا التَّخَاجُؤَ وامنعوا أَسْتَاهَكُمْ وامْشُوا بِمَدْرَجَةِ الطريقِ المَهْيَعِ[٧]
أَنتم بَقِيَّةُ قومِ لُوطٍ فاعلَمُوا وإلى خِنَاثِكُمُ يُشَارُ بإِصْبَعِ
وإذا قُرَيشٌ حُصِّلَتْ أَنْسَابُها فبآلِ شَجْعٍ فافْخَرُوا فى المَجمَعِ[٨]

---

(١) الديوان ص ١٨٢ .
(٢) ابن نابغة : عمرو بن العاص ونابغة أمه . أنحى : أقصد وأوجه . الصارم الذكر : السيف الشديد القطع .
(٣) راغت : مالت . ذى شرف : موضع . جذيمة : علم على شخص . عفت الأثر : ضيعته .
(٤) ملحان : عبد لخزاعة . الحجون : جبل بمكة .
(٥) الديوان رقم ١٣٠ .
(٦) الخرع : المتثنيات اللاتى لا يردون يد لامس .
(٧) التخاجؤ : التبختر مع إبراز العجز . مدرجة الطريق : معظمه المطروق . المهيع : الواضح .
(٨) حصلت : أحصيت وبينت . شجع : بطن من كنانة .

خُرْقٌ مَعَازِيلٌ إذا جَدَّ الوَغَى بُطُنٌ إذا ما جارُهُمْ لم يَشْبَعِ[١]

كما هجا سعد بن أبي السَّرْح من المنافقين، وتلطف فى الكناية عما يريد من اتهام أمه فقال[٢] :

ووالله ما أَدْرِى وإنِّى لَسَائِلٌ مُهَانَةُ ذاتُ الخِيفِ أَلْأَمُ أَمْ سَعْدُ[٣]
أَعَبْدٌ هَجِينٌ أَحمرُ اللَّوْنِ فاقعٌ مُوَتَّرُ عِلْبَاءِ القَفَا قَطَطٌ جَعْدُ[٤]
وكان أَبو سَرْحٍ عَقيماً، فلمْ يَكُنْ لهُ وَلَدٌ حتى دُعِيتَ لهُ بعْدُ

مبررات هذا الإفحاش

وهو كما ترى هجاء قد أفحش فيه حسان ، وعرض للعورات ، وكشف السوءات ، وانتهك الحرمات، وقد يكون هذا الإفحاش مذموماً ، مجافياً للمبادئ الأخلاقية ، والآداب الإسلامية ، والمناهج الإنسانية عامة ، ولكنه قد يكون مقبولا حين تتعرض الدنيا لمحنة كتلك التى كانت بين المسلمين والمشركين إبان ظهور الإسلام ، بل لقد كان سلاحاً مشروعاً فى معركة استحل فيها الخصم كل سلاح ، فاستباح الإسلام منهم الدماء ، وشرع الله لكيدهم وإعزاز دينه القتل والقتال ، وجاء بذمهم القرآن ، وندب الرسول لهجائهم حسان ، ورخص له أن يقول فيهم ما قال .

والمرأة التى تخوض غمرات القتال وتجوس خلال القتلى يوم أحد ، حتى إذا رأت بينهم حمزة بن عبد المطلب شقت بطنه عن كبده ، فاستخرجتها ، فاقتطعت منها قطعة فلاكتها ثم لفظتها ، يحل فيها أن يقول لها حسان[٥] :

---

(١) خرق : جمع أخرق وهو الأحمق الذى لا يحسن تصريف الأمور . معازيل : جمع معزال وهو الضعيف ومن لا سلاح معه . بطن : جمع بطن وهو كبير البطن من كثرة الأكل لا هم له سواه .

(٢) الديوان رقم ٥٩ .

(٣) مهانة : زوج سعد وهى من الأشعريين ، وأمه أيضاً اسمها مهانة ، والظاهر أنها هى المرادة هنا. الخيف : لعله جمع أخيف ، أى أنها أم لأولاد آباؤهم شتى .

(٤) العلباء : عصب العنق ، قطط جعد : قصير الشعر خشنه كشعر الزنوج .

(٥) الديوان رقم ٢١٤ .

أَشِرَتْ لَكَاعِ وكانَ عادَتَهَا ... لؤمٌ إذا أَشِرَتْ مع الكفر[١]
لَعَنَ الإلهُ وزَوْجَها مَعَها ... هندَ الهُنودِ طويلةَ البَظْرِ[٢]
أَخرَجْتِ مُرْقِصَةً إلى أُحُدٍ ... فى القومِ مُعْنِقَةً على بَكْرِ[٣]
بَكْرٍ ثَقَالٍ لا حَراكَ بهِ ... لا عن مُعَاتَبَةٍ ولا زَجْرِ[٤]
وعَصَاكِ إسْتُكِ تَتَّقِينَ بها ... دَقَّ العُجَايَةِ عارِىَ الفِهْرِ[٥]
قَرِحَتْ عَجِيزَتُها ومَشْرَجُها ... من نَصِّها نَصًّا على القَهْرِ[٦]
ظَلَّتْ تُداوِيهَا زميلَتُها ... بالماءِ تَنْضِحُهُ وبالسِّدْرِ[٧]
أَقْبَلْتِ زائرةً مُبَادِرَةً ... بأَبِيكِ وابنِكِ يومَ ذى بَدْرِ
وبِعَمِّكِ المَسْلوبِ بِزَّتَهُ ... وأَخيكِ مُنْعَفِرَينِ فى الجَفْرِ[٨]
ونَسِيتِ فاحشةً أَتَيْتِ بِها ... يا هندُ وَيْحَكِ سُبَّةَ الدهرِ
فرجعتِ صاغِرَةً بلا تِرَةٍ ... مما ظَفِرْتِ به ولا وِتْرِ[٩]
زَعَمَ الولائدُ أَنها وَلَدَتْ ... وَلَدًا صغيرًا كان من عِهْرِ[١٠]

وقد زادها على ذلك قطعتين أخريين هجاها فيهما مثل هذا الهجاء[١١] .

---

(١) الأشر : شدة الفرح شماتة وبطرا . اللكاع اللئيمة .
(٢) هند : هى بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، أم معاوية وزوج أبى سفيان .
(٣) مرقصة مسرعة وكذلك معنقة .
(٤) ثقال : بطىء .
(٥) يقول : إن استك هو عصاك التى تحثين بها البعير وتدقين ظهره كما تدق العجاية بالفهر . والعجاية عصب مركب من فصوص عظام ، كانوا إذا جاع أحدهم دقها بين فهرين فأكلها ، والفهر حجر يملأ الكف .
(٦) النص التحريك حتى تستخرج من المطية أقصى سرعتها .
(٧) السدر : شجر النبق والمراد ورقه .
(٨) أبوها عتبة بن ربيعة وابنها حنظلة بن أبى سفيان وعمها شيبة بن ربيعة وأخوها الوليد بن عتبة وقد قتلوا ببدر .
(٩) الترة والوتر : الثأر .
(١٠) الولائد جمع وليدة وهى الأمة أو الوصيفة . العهر : الفجور .
(١١) الديوان الرقمان ٢٢٤ و ٢٢٥ .

ومن هذا اللون الهجائى الفاحش تلك الصورة التى ابتكرها فى هجاء بعض بنى رَحْضَة من بنى الدِّيل ، إذ يقول[١] :

يَا بْنَ التى لَبِثَتْ مَلِيًّا فى اسْتِها أَيْرٌ ، وفى حِرِها كُرَاعُ بَعِيرِ
قد كنتُ لا أَهْوَى السِّبابَ فسَبَّنِى أَحْلامُ طَيرٍ فى قُلوبِ حَمِيرِ

ولن تجد أجمع للحمق والغباء من اجتماع أحلام طير فى قلوب حمير .

ومنه قوله فى حُنَيْن ، يهجو صَفْوان بن أُميّة ، وكانت أمه عند أبى حَنْبَل ، وكَلَدَة بن حنبل أخوه منها :

رأَيتُ سَوَادًا من بَعيدٍ ، فَراعَنِى أَبو حَنْبَلٍ يَنْزُو على أُمِّ حَنْبَلِ
كأَنَّ الذى يَنْزُو بِهِ فَوْقَ بَطْنِها ذِراعُ قَلُوصٍ من نِتاجِ ابنِ عَزْهَلِ[٢]

وكذلك قوله فى هجاء سليم بن أشجع من غطفان[٣] ، وفى هجاء بنى المغيرة من مخزوم[٤] ، وفى هجاء بنى طابخة وبنى شجع من كنانة[٥] ، وقد بلغ فى هذا وفى غيره من الإفحاش مدى بعيداً .

تصحيح بعض الآراء

فعجيب مع ما تقدم أن نجد من شيوخ أهل الأدب من يقول : « إن هجاء حسان كان من غير فحش ولا هجر »[٦] .

أسباب هذا الإفحاش

طال بنا عرض النماذج من شعر حسان الهجائى ، نبتغى من ذلك تقرير ما قدمنا من كثرته ، ومن أنه كان يوجهه إلى أعداء الله ورسوله ، ومن براعته فيه ، ومن أنه

---

(١) الديوان رقم ٦٥ .
(٢) بعير عزهل : شديد ، وكأن المراد بابن عزهل هنا بعير بعينه .
(٣) الديوان رقم ٢١٨ .
(٤) الديوان رقم ١٨٣ .
(٥) الديوان رقم ١٥٠ .
(٦) ارجع إلى الوسيط ص ١٥٩ وما بعدها .

جرى فيه جملة على منهج جاهلى ، واتبع طريق التهكم والسخرية ، وإبراز المهجو فى صور هزلية مضحكة أو هيئة بشعة منكرة ، وأنه كان يفحش فيه إفحاشاً يناسب أذواق البداوة ، ويبلغ به ما يريد من أذى المهجو ، إذ كانت تلك الطبائع البدوية تطرب له ، وتستريح إليه ، وتتناقله وتتندر به. ولم يكن هذا النمط من الإفحاش معروفاً فى الجاهلية ، ولم نجد له نظيراً فى شعر صاحبيه كعب وابن رواحة ، ولا فى شعر كعب بن زهير ومعن بن أوس ولبيد والخنساء وغيرهم من المخضرمين ، ومع ما كان عليه الحطيئة من الرغبة فى الهجاء والإكثار منه ، وعدم التقيد بالآداب الإسلامية . فإننا لم نر له من ذلك إلا قوله فى هجاء الحُصَيْن بن لقمان العبسى (١) :

وأُمُّكَ حمراءُ زَوْفِيَّـةٌ ... لِنَقْلِ الحَشِيشِ ،جُرازُ الحَطَبْ (٢)
بِنَبْثِ الغُوَاةِ على ثُفْرِها ... كَنَبْثِ الثعالبِ جُحْرَ السَّرِبْ (٣)

وقد نحا النابغة الجعدى هذا المنحى مرة فى هجائه ليلى الأخيلية إذ يقول (٤) :

أَلاَ حَيِّيا ليلى وقولا لها هَلاَ ... فقد رَكِبَتْ أَمرًا أَغَرَّ مُحَجَّلا (٥)
دَعِي عنكِ تَهْجاءَ الرجالِ ، وأَقْبِلِي ... على أَدْلَفِيٍّ يَمْلأُ اسْتَكِ فَيْشَلا (٦)
وكيفَ أُهَاجِي شاعِرًا رُمْحُهُ اسْتُهُ ... خَضِيبُ البَنَانِ لا يزالُ مُكَحَّلا

فأجابته ليلى بقولها (٧) :

أَنَابِغْ لم تَنْبُغْ ولم تَكُ أَوَّلاً ... وكنتَ صُنَيًّا بينَ صَدَّيْنِ مَجْهَلا (٨)

---

(١) ديوانه ص ٨٢ .

(٢) زوفية : من الزوف وهو التبختر أو الدوران فى خفة . الجراز : السيف القاطع ، يريد أنها تجتز الحطب وتستلمه .

(٣) النبث : النبش ، الثفر للسباع وذوات المخالب كالحياء للناقة . السرب : جحر الوحش والحفير تحت الأرض .

(٤) الأغانى ٤/١٣٤ .

(٥) هلا : زجر للخيل ، تزجر به الأنثى إذا نزى عليها لتسكن .

(٦) الأدلفى الذى يمشى مشى المقيد والناهض بالحمل الثقيل مقارب الخطو .

(٧) الأغانى ٤/١٣٤ .

(٨) الصنى حسى صغير وحفير ضئيل لا يرده أحد . الصد : الجبل وناحية الوادى .

أَنابِغُ إِنْ تَنْبُغْ بُلُؤْمِكَ لا تَجِدْ لِلُؤْمِكَ إِلاَّ وَسْطَ جَعْدَةَ مَجْعَلا
تُعَيِّرُنِي داءً بِأُمِّكَ مِثْلُهُ وأَيُّ نَجِيبٍ لا يُقالُ له هَلاَ

وقد كان لحسان نفسه سوابق من طراز هذا الشعر فى جاهليته على ما سلف . مما يزيدنا ميلا إلى الاقتناع بسيطرة النزعة الجنسية عليه ، وعجزه عن الاستجابة لها[1] ، وبتأثره فى هذا أيضاً بطبيعته الغضوب المندفعة[2] ، وباعتقاده أن هذا اللون من الهجاء أقدر على إرهاب خصومه وإلجامهم ، وأنه أبلغ فى الناس أثراً وأكثر سيرورة ، إذ تهش له طبائعهم الخشنة ، وترتاح إليه أذواقهم البدوية الجافية . ولعل تفرد حسان — على مكانه من الرسول والإسلام — بالإيغال فى هذا اللون من الهجاء راجع بعضه إلى أن أحداً من معاصريه الشعراء لم يندب لمثل ما ندب له من هجاء الكفار والاشتفاء منهم ، وإلى أنه كان يجاهد بشعره ولسانه فحسب ، فصيّر هجاءه لذلك طعناً وضرباً وتجريحاً وتقتيلا .

خصائص فنه الهجائى

ولا يكاد هذا اللون من الهجاء يعرف بهذه الكثرة بعد الإسلام إلا فى نقائض جرير والفرزدق ، كما أن تلك الصور الساخرة المفحشة التى رسمها حسان ، وتلك الألفاظ التى كان يتخيرها مناسبة لها قد ضمنتا لهجائه الذيوع ، وأكسبتاه مكانة معروفه ، وجعلتاه أشد على أعداء الإسلام من وقع النبل كما قال الرسول .

ومن الخصائص الغالبة على شعره الهجائى سهولته التى يدركها المرء ، واقتصاره فيه على البيتين والأبيات القليلة ، مما يدل على بصره وتمرسه ، فذلك — كما قدمنا — أدعى لأن يكون أيسر حفظاً ، وأسير ذكراً ، وأشد بالذهن علوقاً . وأقرب إلى العامة والخاصة تناولا ، وأكثر فيما بينهم تداولا ، وربما كان ذلك راجعاً إلى اضطرار الشاعر للإكثار من ذلك الشعر بكثرة المناسبات التى كانت تدعو إليه وتتابعها . وعدم إعماله للروية فيه وأخذه بالتهذيب والتنقيح . ومما جعل لهجائه ذلك الوقع الشديد على نفوس المهجوين أنه كان يعتمد فيه على الواقع ، يشكله ويصوره

(١) انظر ص ٢٢٢ ، ٢٦٨ من هذا الكتاب .
(٢) انظر ص ١٤٢ ، ١٤٤ من هذا الكتاب .

ويخرجه مخرج الدعابة الساخرة ، أو البشاعة السافرة .

وإذا كان حسان — كما قلنا — لم يمنح طبيعة هجاءة ، فقد كانت حياته الجاهلية وما تخللها مدرسة تخرج فيها فأحسن الهجاء ، ثم شافهته أحداث الإسلام فكانت له مدرسة أخرى نضج فيها فنه ، واستقام منه البناء .

وحسان كالحطيئة فى استمداده من الواقع ، واعتماده على ما يثير فى النفوس العواطف المشتركة . أما الصناعة والتعمق فى الخيال ، والإيغال وراء المعانى البعيدة فمفسدة للهجاء . ولم يفسد هجاء الفرزدق شىء كالتكلف ، ولم يضعف هجاء أبى تمام كالتعمق والإسراف فى التخيل ، ولم يبلغ هجاء الأخطل ما بلغ زميلاه فى هجائهما لأنه جعل همه تجويد الشعر وتسويته ، معتمداً فى ذلك على مقدرته ، أما جرير فقد كان أحسنهم هجاء . لأنه اعتمد فيه على ما اعتمد عليه حسان والحطيئة .

وكما كان لحسان فى فخره منهج يختلف عن منهج صاحبيه كعب وابن رواحة ، فى حرصه على الفخر بآبائه ، والتشبث بآيات مجدهم القديم ، وما كان لهم من ملك وسيادة ، فقد انفرد عنهما أيضاً بمنهجه فى الهجاء ، وبالإكثار منه ، وإجادته دونهما ونبوغه فيه .

الغزل

الغزل والطبيعة البشرية

ظل حب الجمال ، والتقرب من المرأة والتغزل بها حاجة النفس البشرية ، ونجوى الأرواح ، وحديث القلوب ، وسيظل كذلك ما بقيت الدنيا . وما بقيت بها قلوب تخفق ، وأرواح تهفو ، يستوى فى ذلك العالمون والجاهلون ، ويلتقى عنده الصالحون والطالحون . وقد درج الناس منذ بعيد على أن تكون دموعهم وزفراتهم عن وجدهم ترجماناً ، وأن يرسلوا نفثات شجونهم أغانى وألحاناً ، وأن يجعل الشعراء منهم النسيب والتشبيب والغزل لكتاب شعرهم عنواناً ، وأن يزينوا مطالع قصيدهم به ويفتنوا فى ذلك افتناناً .

تشابه منهج غزله الإسلامى والجاهلى

ولهذا سنرى حسان فى إسلامه — وإن قل شعره الغزلى[١] — كما رأيناه فى جاهليته ، ما زال ينسب ويتغزل ، ويذكر أحبته ، وما يعتاده من شوق ومن حنين . فهل كان صادق الصبابة والوجد فيما ذكر من هواه على شيخوخته ؟ وهل كان ما يزال يحس حرارة الحب الدفين فى كبرته ؟ لا يستطيع أحد أن يحكم على الشيوخ بموت قلوبهم وجمود عواطفهم مادامت فيهم حياة . وكم من حب عنيف اتقدت جمرته فى قلوب أولئك الشيوخ ، وكم من ذكريات لأيام الهوى والشباب ظلت تعصف بقلوبهم وأرواحهم حتى وارتهم قبورهم ! !

وكذلك كان حسان ، فقد تلمح فى بعض غزله الإسلامى آثار ذلك الحب الدفين ماثلة ، وتشعر بما يخالطه من لذة حين يستعيد أطيافه ، ويتملى صوره . كما تلمح فى بعضه الآخر غزلا تقليديًّا يسوقه فى مطالع شعره ، كعادتهم فى البدء بمساءلة الديار والأطلال ، والحديث عن الرسوم العافية والرباع المحيلة ، وما صنعت بها الرياح والأمطار . فهو فى هذا يسير على منهجه الجاهلى ، لم يختلف عنه إلا بالتخلى عن ذكر المشاهد والديار الغسانية التى كانت تتردد فى مثل قوله :[٢]

تَطَاوَلَ بالخَمَّانِ ليلى . فلم تَكَدْ تَهُمُّ هَوَادِى نَجْمِهِ أَنْ تَصَوَّبَا

وقوله[٣] :

انظر خليلِى ببَطنِ جِلِّقَ هلْ تُؤْنِسُ دونَ البَلْقاءِ من أَحَدِ
من دونِ بُصْرَى وخَلْفَهَا جبلُ الثَّـ ـلجِ عليه السحابُ كالقِدَدِ

وهو فيه أيضاً يتبع الطريقة الشائعة فى عصره . حين يقتضب حديث الغزل ، منتقلا منه إلى غرضه الأصلى بقوله : «دع ذا . ودع عنك ذا ، ودع ذكر دار» وغيرها .

قلة غزله كمًّا وكيفا

أما أثر السن والشيخوخة فقد يبدو فى قلة ما صار إليه ذلك الغزل . كما قد

---

(١) غزله بالديوان بالأرقام ٣ ، ٥ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٣١ ، ١٧٥ وانظر الجدولين ٢ ، ٤ .
(٢) الديوان رقم ٢٩ .
(٣) الديوان رقم ١٣٨ .

يبدو فى تقصيره عن شأوه الجاهلى ، فى طول نفسه وما يشعره من صدق العاطفة .

من شعره فى بدر

استمع إلى قوله فى قصيدته يوم بدر [١] :

تَبَلَتْ فؤادَكَ فى المَنَامِ خَرِيدَةٌ ... تَسْقِى الضَّجِيعَ ببارِدٍ بَسَّامِ [٢]

كالمِسْكِ تَخْلِطُهُ بِماءِ سَحَابةٍ ... أَو عاتِقٍ كَدَمِ الذَّبِيحِ مُدَامِ [٣]

نُفُجُ الحَقِيبَةِ ، بَوْصُها مُتَنَضِّدٌ ... بَلْهاءُ ، غَيْرُ وَشِيكَةِ الأَقْسَامِ [٤]

بُنِيَتْ على قَطَنٍ أَجَمَّ ، كأَنَّهُ ... فُضُلاً إذا قَعَدَتْ مَدَاكُ رُخَامِ [٥]

وتكادُ تَكْسَل أَنْ تَجِىءَ فِرَاشَها ... فى لينِ خَرْعَبَةٍ وحُسْنِ قَوَامِ [٦]

أَما النهارُ فما أُفَتِّرُ ذِكْرَهَا ... والليلَ تُوزِعُنِى بها أَحْلامِى [٧]

أَقْسَمْتُ أَنساها وأَتْرُكُ ذِكْرَهَا ... حتى تَغَيَّبَ فى الضَّرِيحِ عِظامِى [٨]

وصف المحاسن الجسدية

وانظر كيف ترى جمال قوله فى الحديث عن محبوبته ، الدرة المكنونة ، الحسناء الخفرة ، الخفيضة الصوت ، التى أورثته سقماً حين زارته فى المنام ، والتى تسقى الضجيع ريقاً بارداً من ثغرها البسام ، كالمسك مخلوطاً بماء السماء ، أو الخمرة المعتقة الحمراء ، ضخمة الأرداف ، ساذج لا تسرع إلى الأقسام ، كأن أسفل

---

(١) الديوان رقم ٣ .

(٢) تبلت : أسقمت أو ذهبت بالعقل . الخريدة : البكر أو الحسناء الناعمة ، أو الحيية الخفرة .

(٣) العاتق : الخمر القديمة . المدام : الخمر .

(٤) نفج الحقيبة : عظيمة الأرداف بارزتها . البوص : الردف والعجز . متنضد : يعلو بعضه بعضاً . بلهاء : غفول عن الشر عفيفة ساذجة . غير وشيكة الأقسام : لا تسرع إلى الحلف .

(٥) القطن : ما بين الوركين إلى بعض الظهر . أجم : ممتلىء باللحم . فضلا : فى ثوب واحد . المداك : الحجر يسحق فيه الطيب .

(٦) الخرعبة : اللينة اللحيمة الدقيقة العظام ، والبيضاء الجميلة الخلق .

(٧) أفتر : أضعف ، توزعنى : تغرينى .

(٨) أقسمت أنساها : أى لا أنساها .

ظهرها إذا قعدت متخففة من ثيابها فى استوائه واكتنازه واستدارته ونعومته مداك يسحق فيه الطيب من الرخام ، كسول رخصة جسيمة لحيمة دقيقة العظام ، بيضاء جميلة فى اعتدال وحسن قوام ، وهو مما به منها لا يفتر عن ذكرها نهاراً ، فإذا أجنّه الليل فنام أغرته بها الأحلام ، وقد أقسم ألا ينساها ولا يترك ذكرها حتى تغيب فى الضريح منه العظام .

تشابه معانيه واتجاهاته الغزلية جاهلية وإسلاماً . أسبابه

وقد وجه حسان اهتماماً ظاهراً إلى وصف محاسنها الجسدية ، وأتى فيه بما لم يكن مألوفاً لديه من قبل ، مما حملنا على النظر فى معانيه وتشبيهاته وروحه واتجاهاته الغزلية عامة ، لنقيسها بما عرفنا له منها فى جاهليته ، ونتبين ما بينهما من خلاف فننظر فى أسبابه . وقد انتهى بنا النظر إلى أن الشاعر لم يكد يستحدث جديداً فى شىء من هذا ، فقوله فى بدر يصف الريق والفم :

تَبَلَتْ فؤادَكَ فى المَنامِ خَرِيدةٌ تَسْقِى الضجيعَ ببارِدٍ بَسَّامِ
كالمِسكِ تَخْلِطُهُ بماءِ سَحَابةٍ أَو عاتِقٍ كدمِ الذبيحِ مُدَامِ

يشبه قوله الجاهلى :

كأَنَّ فَاهَا ثَغَبٌ باردٌ فى رَصَفٍ تَحْتَ ظِلالِ الغَمَامْ
شُجَّتْ بصَهْباءَ لها سَوْرَةٌ من بَيْتِ رأسٍ عُتِّقَتْ فى الخِتَامْ

وقوله فى بدر أيضاً :

أَمّا النهارُ فما أُفَتِّرُ ذِكْرَها والليلَ تُوزِعُنِى بها أَحْلامِى

قريب من قوله :

جِنِّيَّةٌ أَرَّقَنِى طَيْفُهـا تَذْهَبُ صُبحاً وتُرَى فى المَنَامُ

وقوله فى غزوة الطائف :

لها عَيْنُ كَحْلاءِ المَدَامِعِ مُطْفِلٍ تُرَاعِى غزالاً يَرْتَعِى بالخَمَائِلِ

من قوله الجاهلى :

هلْ هىَ إلاَّ ظَبْيَةٌ مُطْفِـلٌ مَألَفُهـا السِّدْرُ بِنَعْفَىْ بَرَامْ
تُزْجى غزالاً فاتِرًا طَرْفُهُ مُقارِبَ الخَطْوِ ضَعِيفَ البُغَامْ

وقوله فى أحد :

فلم يَبْقَ إلاَّ مَوْقِدُ النارِ حَوْلَهُ رَوَاكِدُ أَمْثالُ الحَمَامِ وُقُوعُ

يلتقى بقوله :

خَلاَءُ المَبَادِى ما به غيرُ رُكَّدٍ ثَلاثٍ كأَمْثالِ الحَمائمِ جُثَّم

وذلك لأن البيئة الطبيعية التى يستمد منها الشاعر معانيه، ويُلهِم خياله وتشبيهه لم تتغير . كما أن البيئة الاجتماعية لم تكد تتأثر بما جاء به الإسلام فى مثل هذه السرعة الخاطفة . أما الجوانب النفسية والعاطفية فى حياة الإنسان ؛ وهى التى ينبعث عنها الغزل . فإنها أقل من غيرها تحولا . وأبطأ استجابة لدواعى التغير والتطور . وقد تلمس هذا التشابه العاطفى فى حسان أكثر من سواه . لأنه فى جاهليته لم يكن شديد التأثر بالحياة الجاهلية والنزعات البدوية فى غزله وعاطفته ، فلن تجد عنده وصفاً للدبيب ومخاتلة الأحراس . ولا ذكراً لسعيه إلى صاحبته سعى الفاتكين مدججاً بالسلاح . ولا تصريحاً معيباً بما قد يكون بينهما عند اللقاء وفى الخلوات ، ولو شئت لوجدت من ذلك كثيراً فى شعر بعضهم ، كامرئ القيس وغيره من الجاهليين . ولهذا فإنك لا تجد فارقاً بين غزليه الجاهلى والإسلامى منهجاً ومعنى وروحاً . إلا ما قدمنا من بعض الإفاضة فى وصف المحاسن الجسدية للمرأة — وكان أولى أن نرى له ذلك فى جاهليته — وصفاً يبرز تلك المحاسن كما تراها عين الخبير الذى يتذوق الجمال ويعرف مواطنه ، وكأنى به يلذه أن يتصور ذلك الحسن وأن يصوره من خلال غلالة رقيقة . تبدى منه بعضاً وتستر بعضاً . فتجعله فتنة للناظرين ؛ ترى ذلك فى قصيدة بدر السالفة . كما تراه فى ميمية أحد الآتية . فما سر هذا التصابى بعد الكبر ؟ لعله راجع إلى لون من نشوة النصر أو سورة الحرب — والمسلمون يغزون فينصرون — أضفى عليه بعض القوة . وأعاده إلى الفتوة . ورده إلى الحياة المرحة الضاحكة ، فتغنى بذلك مثلما يتغنى أهل الحماسة والحب ، وأنشد كما ينشد الشباب الغزلون الفرحون .

ذكره الخمر ومدى دلالته

وقد يقول قائل كيف يذكر حسان الخمر بعد إسلامه ، إنه إذاً لمنحرف عن سنن الهدى ، غير حريص على تعاليم الإسلام وآدابه[١] ! وما لأحد أن يدعى أن حسان بمثل هذا القول خارج على حدود دينه ، فما هو إلا تشبيه جرت به عادتهم القديمة ، دون أن يقصدوا منه دعوة إلى الخمر أو تحسيناً لها فى قديمهم أو حديثهم . ولماذا نعيب على حسان ما لم نعب على غيره ممن أسلموا وشهدوا الرسول ؟ فقد وفد كعب بن زهير عليه تائباً نازعاً ، فأنشده فى المسجد قصيدته « بانت سعاد ». وقد تغزل فيها ما شاء ، وشبه ريق سعاد بالخمر على نحو ما فعل حسان ، فأحسن الرسول الاستماع إليه ، وتلقاه بالعفو ، وكساه بردته[٢] .

ووفد النابغة الجعدى على الرسول ، وأنشده قصيدته التى يقول فيها :

أَتَيْتُ رسولَ اللهِ إذْ جاءَ بالهُدَى ويَتْلُو كتاباً كالمَجَرَّةِ نَيِّرَا

وقد ذكر فيها نداماه عند المنذر بن محرق ، ومجلس شرابهم لديه ، إذ يقول :

لَدَى مَلِكٍ من آلِ جَفْنَةَ خالُهُ وجَدَّاهُ من آلِ امرِئِ القيسِ أزهرا
يُدِيرُ علينا كأْسَهُ وشِوَاءَهُ مَنَاصِفُهُ ، والحَضْرَمِيَّ المُحَبَّرَا
رَحِيقاً عراقيًّا ، ورَيْطاً شآمِياً ومُعْتَصَرًا من مِسْكِ دَارِينَ أَذْفَرَا

فلم ينكر عليه النبى ، بل دعا له فقال : « لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ »[٣] .

متى حرمت الخمر ؟

ومع ذلك فالقول الفصل فى هذا ينبغى أن يكون مرده الوقت الذى حرمت فيه الخمر ، ومعلوم أنه قد نزل فى الخمر آيات : الأولى قوله تعالى من سورة البقرة : « يَسْأَلُونَكَ عن الخمرِ والمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كبيرٌ ومَنافِعُ للناس ، وإِثْمُهُما أَكبرُ من نَفْعِهما ». وقد نزلت فى عمر بن الخطاب ومُعَاذ بن جبل ونفر من الأنصار

---

(١) انظر الهجاء والهجاءون ص ٢٢١ .

(٢) ابن هشام السيرة ٤/١٤٧ . الأغانى ١٥/١٤٠ . الجمهرة ص ٣٠٨ ، الشعر والشعراء ص٦١

(٣) الأغانى ٤/١٣٠ الجمهرة ص ٣٠١ . الشعر والشعراء ص ٩٦ .

أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أفتنا فى الخمر والميسر ، فإنهما مذهبة للعقل ، مسلبة للمال ، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١] . ومن هذا يتضح أن الآية نزلت بالمدينة ، بعد أن كانت الهجرة وكان هناك أنصار مسلمون .

والثانية قوله تعالى من سورة النساء : « يَاأَيُّها الذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصلاةَ وأَنتمْ سُكَارَى حتى تَعْلَمُوا ما تقولون » . ولا خلاف فى أن هذه الآية مدنية ، بل إن السورة كلها مدنية كذلك[٢] .

والثالثة قوله تعالى من سورة المائدة : « يَاأَيُّها الذِينَ آمَنُوا إِنَّما الخمرُ والمَيْسِرُ والأَنْصَابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشيطانِ فاجْتَنِبُوه » وهى مدنية ، وبها صار تحريم الخمر[٣] . وقد نزلت سورة المائدة بين صلح الحُدَيْبِيَة فى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة[٤] وبين غزوة تبوك فى رجب من السنة التاسعة[٥] .

إذاً فلم تكن الخمر محرمة عند الهجرة ، وقد ظلت حلالا إلى ما بعد السنة السادسة منها ، أى إلى ما بعد بدر وأحد والخندق وغيرها . وكان بعض المسلمين يشربها ، فليس يعيب حسان حينئذ أن يذكرها ، وقد قال ما قاله فيها فى السنة الثانية يوم بدر .

حسان لم يذكر الخمر بعد إسلامه إلا مرة

أما قوله فى فتح مكة[٦] :

ونَشْرَبُها فتَتْرُكُنا مُلُوكاً وأُسْدًا ما يُنَهْنِهُنا اللقاءُ

فقد حققنا فيما تقدم[٧] أن صدر قصيدة الفتح — ومنه هذا البيت — أنشأه

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص ٤٨ .
(٢) أسباب النزول ص ١١٢ .
(٣) أسباب النزول ص ١٥٤ .
(٤) سيرة ابن هشام ٣/٣٢١ .
(٥) سيرة ابن هشام ٤/١٥٩ . .
(٦) الديوان رقم ١ .
(٧) انظر ص ١٩٤ من هذا الكتاب .

حسان فى جاهليته . وقد تتبعنا سائر شعره الإسلامى فرأيناه لم يذكر الخمر إلا فى القصيدة السالفة .

من شعره فى أحد

ونعود لغزل حسان ، فنذكر له منه ما قاله فى قصيدته يوم أحد[1] :

مَنَعَ النَّوْمَ بالعِشاءِ الهُمومُ ... وخَيَالٌ إذا تَغُورُ النُّجومُ
من حَبِيبٍ أَصابَ قلبَكَ منهُ ... سَقَمٌ فهو داخِلٌ مَكْتُومُ
يا لَقَوْمِى هل يَقْتُلُ المرءَ مِثْلِى ... وَاهِنُ البَطْشِ والعِظَامِ سَئُومُ ؟
هَمُّها العِطْرُ والفِراشُ ويَعْلُو ... ها لُجَيْنٌ ولُؤْلُؤٌ مَنْظُومُ
لو يَدِبُّ الحَوْلِىُّ مِنْ وَلَدِ الذَّر ... عليها لَأَنْدَبَتْها الكُلُومُ[2]
لم تَفُقْها شَمْسُ النهارِ بِشَىْءٍ ... غيرَ أَنَّ الشَّبابَ ليس يَدُومُ

وإذا كانت حبيبته قد زارته المرة السابقة فى المنام ، فقد تراءى له خيالها هذه المرة فى يقظته . فأصاب قلبه منها ما أصابه قبل ذلك من سقم . وهو هنا يصف محاسنها مثلما وصفها بقصيدته السالفة ، سائلا قومه فى لهفة وعجب — لما يشعر به من عجز عن احتمال هواها — هل يقتل مثله من الأقوياء واهن البطش والعظام سئوم مثلها ، ويذكر من تنعمها ورفاهيتها أنها تعيش للعطر والفراش والزينة ، وأن الصغير من ولد النمل لو دب على جسمها لترك به من الجراح آثاراً ، ويحدّث عن جمالها وضياء بهجتها أن الشمس ليست تفوقها شيئاً ، وحبذا ذاك الحسن لو دام وامتد به عهد الشباب .

وقد عرض الجاحظ بالنقد لقوله :

لو يَدِبُّ الحَوْلِىُّ من وَلَدِ الذَّرِّ ... عليهـــا لأَنْدَبَتْها الكُلُومُ

---

(١) الديوان رقم ٥ .

(٢) الذر : صغار النمل . الحولى : الصغير الذى يماثل الحولى من ولد ذوات الحافر وهو ما أتى عليه عام .

فقال : إن الحَوْلِىَّ منها لا يعرف من مَسَانِّها . وإنما هو كما قال الشاعر :

تَلقَّطُ حَوْلِىَّ الحَصَا فى منازلٍ من الحَىِّ أَمْسَتْ بالحبيبين بَلْقَعاً

قال : وحولىّ الحصا صغارها ، فشبهه بالحولى من ذوات الأربع[1] .

قالوا[2] : وأفضل من قول حسان هذا قول امرئ القيس :

مِنَ القاصِرَاتِ الطَّرْف لو دَبَّ مُحْوِلٌ من الذَّرِّ فَوقَ الإِتْبِ منها لَأَثَّرَا

وأرى أن فضله عليه إنما هو فى سبقه ، وفى زيادة المعنى بقوله « من القاصرات الطرف » . وفى المبالغة بقوله : « فوق الإتب » أما ما توجه إلى حسان من النقد بقوله « الحولى » فمتوجه إلى امرئ القيس بقوله « محول » .

من شعره فى الطائف

وحسان فى هذه المرة لم يؤرقه الطيف ، ولم يزره الخيال ، ولكن هاجته رسوم المنازل العافية ، يجودها الغيث ، وتجر فيها الرامسات ذيولها ، فيقول فى غزوة الطائف[4] :

أَهَاجَكَ بالبَيْداءِ رَسْمُ المنازلِ نَعَمْ قد عَفَاها كلُّ أَسْحَمَ هاطِلِ[5]

وجَرَّتْ عليها الرامِساتُ ذُيولَهَا فلم يَبْقَ منها غَيْرُ أَشْعَثَ ماثِلِ[6]

دِيَارُ التى راقَ الفؤادَ دَلالُها وعَزَّ علينا أَنْ تَجودَ بنائِلِ

لها عَيْنُ كَحْلاءِ المَدامِعِ مُطْفِلٍ تُرَاعِى نَعَاماً يَرْتَعِى بالخَمَائِلِ[7]

---

(١) الحيوان ٤/١٦ .

(٢) الموازنة ص ١٣٦ .

(٣) الإتب : برد يشق فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمين ، أو هو قميص بلا كمين .

(٤) الديوان رقم ١٧ .

(٥) عفاها : أهلكها . الأسحم : السحاب الأدكن الممطر .

(٦) الرامسات : الرياح التى تثير التراب فترمى به الآثار ، أى تدفنها . الأشعث الماثل : لعله الوقد أو موقد النار .

(٧) كحلاء المدامع : يقصد الظبية ، مطفل : ذات ولد . الخمائل : جمع خميلة وهى المكان يكثر به الشجر .

دِيَارُ التى كادتْ ونحنُ على مِنًى تَحُلُّ بنا لولا نجَاءُ الرَّوَاحِلِ[1]

وبيته الأخير هو قول قيس بن الخطيم الجاهلى . أو كأنه هو :

ديار التى كادت ونحن على منى تحل بنا لولا نجاء الركائب

ولست أدرى أنسمى هذا « توافقاً فى الخواطر » كما يقول بعضهم . أم نسميه « نسخاً » كما يسمى أمثاله ابن عبد الكريم الموصلى فى كتابه « المثل السائر » ؟ وهو أولى .

ظاهرة يتميز بها غزله الصادق من الصناعى

ومن الظواهر الملحوظة فى غزل حسان الإسلامى أنه لا يذكر اسم حبيبته فيما قد يوحى منه بصدق العاطفة كشعره السالف . أما ما هو غزل صناعى محض فإنه يذكر فيه اسم من يشبب بها . كذكره لشعثاء فى عتابه للرسول حين أعطى قريشاً وغيرها من فىء حنين ولم يعط الأنصار . وذلك إذ يقول[2] :

زادَتْ هُمومٌ فماءُ العَيْنِ يَنْحَدِرُ سَحًّا إذا أَغْرَقَتْهُ عَبْرَةٌ دِرَرُ[3]

وَجْدًا بشَعْثاءَ . إذْ شعثاءُ بَهْكَنَةٌ هَيْفاءُ ،لا دَنَسٌ فيها ولا خَوَرُ[4]

دَعْ عنكَ شعثاءَ إذْ كانت مَوَدَّتُها نَزْرًا ، وشَرٌّ وِصالِ الوَاصِلِ النَّزَرِ

وَأْتِ الرسولَ فقُلْ يا خيرَ مُؤْتَمَنٍ للمؤمِنِينَ إذا ما عُدِّلَ البَشَرُ

وكذكره لأمّ الوليد فى قصيدة له يوم أحد ، مطلعها[5]

أَشَاقَكَ مِنْ أُمِّ الوَلِيدِ رَبُوعُ بَلاَقِعُ ما مِنْ أَهلِهِنَّ جَمِيعُ[6]

---

(١) تحل بنا : تجعلنا نحل ونتزل بذلك المكان ، أو نصير إلى الحلال بعد الإحرام . نجاء الرواحل : سرعة الركائب .

(٢) الديوان رقم ١٣١ .

(٣) درر : سائلة متتابعة .

(٤) البهكنة : الجارية الخفيفة الروح . الطيبة الرائحة ، الغضة الشابة المليحة . هيفاء : ضامرة فى استواء قوام . الدنس : ما يشين العرض ، الخور : الضعف .

(٥) الديوان رقم ١٧٥ .

(٦) بلاقع : جمع بلقع وهو الخالى . جميع : مجتمعون .

عَفَاهُنَّ صَيْفِيُّ الرياحِ ووَاكِفٌ من الدَّلْوِ رَجَّافُ السَّحابِ هَمُوعُ[١]
فلم يَبْقَ إلا مَوْقِدُ النارِ حَوْلَهُ رَوَاكِدُ أمثالُ الحَمامِ وُقُوعُ[٢]
فَدَعْ ذِكْرَ دارٍ بَدَّدَتْ بينَ أَهْلِها نَوًى فَرَّقَتْ بينَ الجميعِ قَطُوعُ[٣]

مما يرجح أنه كان فى الأول صادق الغزل . وأنه لذلك حجب اسم من يهوى حماية لها من فضول المتقولين ، وكذلك كانوا يفعلون . وقالوا إن أول من سبق إلى الكناية عن اسم من يعنى بغيره فى الشعر النابغة الجعدى الذى يقول :

أَكْنِى بغير اسمِها ، وقد عَلِمَ اللـ ـهُ خَفِيَّاتِ كُلِّ مُكْتَتَمِ[٤]

حسان ومعاصروه فى الغزل

ومهما يكن من أمر حسان فى غزله فإن من الإنصاف أن نضعه فى نطاق المقارنة بمعاصريه من الشعراء ، فقد كان يغلب عليهم مشركين ومسلمين أن يبدءوا قصيدهم بالغزل والنسيب ، فلننظر فى غزلهم هذا ، لنتبين مناهجهم وأساليبهم ، ونتعرف المقلين منهم والمكثرين ، والمجيدين والمقصرين .

قال عبد الله بن الزبعرى فى يوم الخندق[٥] :

حَيِّ الدِّيَارَ مَحا مَعَارِفَ رَسْمِها طُولُ البِلى وتَرَاوُحُ الأَحْقَابِ
فكأنما كَتَبَ اليَهُودُ رُسُومَها إلا الكَنِيفَ ومَعْقِدَ الأَطنابِ
قَفْرًا كأَنكَ لم تَكُنْ تَلْهُو بِها فى نِعْمَةٍ بأَوانِسٍ أَتْرَابِ
فاتْرُكْ تَذَكُّرَ ما مَضَى من عِيشَةٍ ومَحَلَّةٍ خَلَقِ المَقامِ يَبَابِ

فأجابه حسان بقوله[٦] :

---

(١) واكف : مطر هاطل . الدلو : برج من بروج السماء . رجاف : مضطرب . هموع : كثير السيلان .
(٢) الرواكد : الأثافى جمع أثفية وهى الحجارة الثلاثة تنصب فوقها القدر .
(٣) النوى : البعد . قطوع : كثير القطع والإبعاد .
(٤) الأغانى ٤/١٣٦ .
(٥) سيرة ابن هشام ٣/٢٦٨ .
(٦) السيرة ٣/٢٦٩ .

هل رَسْمُ دارسَةِ المَقَامِ يَبَابِ مُتَكَلِّمٌ لِمُسَائِلٍ بجَوابِ
قَفْرٌ عَفَا رِهَمُ السحابِ رُسُومَهُ وهُبُوبُ كلِّ مُطِلَّةٍ مِرْبَابِ
ولقد رأَيتُ بها الحُلولَ يَزينُهُمْ بِيضُ الوُجوهِ ثَوَاقِبُ الأَحْسَابِ
فَدَع الديارَ وذِكْرَ كلِّ خَرِيدَةٍ بَيْضاءَ آنِسَةِ الحديث كَعَابِ

وأجابه كعب بن مالك فقال[1] :

أَبْقَى لنا حَدَثُ الحروبِ بقِيَّةً من خَيْرِ نِحْلَةِ ربِّنا الوَهَّابِ
بيضاءَ مُشْرِفَةَ الذُّرَا ومَعَاطِناً حُمَّ الجُذوعِ غَزِيرَةَ الأَحْلابِ

كعب بن مالك وابن رواحة فى الغزل والخمر

فحسان وابن الزبعرى يتسابقان نسيباً وغزلا قبل أن يدخلا فيما يريدان من الحماسة والفخر . أما كعب فإنه يتجه إلى الفخر دون أن يقدم بين يديه غزلا أو نسيباً، وكذلك افتتح حسان قصيدتى بدر وأحد السالفتين وغيرهما ناسباً متغزلا ، على حين لم يفعل ذلك صاحباه ، ولو بحثت فى شعرهما الإسلامى كله للقيت عجبا . هو خلوه من كل غزل أو نسيب ، وشعرهما بسيرة ابن هشام على كثرته ليس فيه شىء من هذا الفن الشعرى[2] . فكأنهما كانا يريان فى الغزل والنسيب آيات صبوة يصونان الإسلام منها ، أو أمارات نزوة يربآن بنفسيهما عنها .

وإذاً فقد انفرد حسان عن صاحبيه برقيق نسيبه ، كما انفرد بذكر الخمر ، وهى شنشنة نعرفها له فى جاهليته .

حسان وسائر معاصريه

فإذا قرنت حسان بغير هذين من المخضرمين رأيت غزلا يشجيك ، وحسناً يستبيك ، ووجدت قولا رائقاً ، وفنًّا رائعاً ، وأحسست كفة حسان تتأرجح بين يديك ، وتضطرب فى ناظريك . . . ! !

---

(١) السيرة ٣/٢٧١ .

(٢) لكعب بن مالك قصيدة فى رثاء حمزة بن عبد المطلب ، بكى فى مطلعها عهد الشباب والهوى ، والناظر فى قوله هذا يعلم أنه ليس بغزل ولا نسيب . والقصيدة بسيرة بن هشام ٣/١٦٥ .

استمع إلى كعب بن زهير فى قصيدته « بانت سعاد » [١] تره قد استهلها بأربعة عشر بيتاً فى الغزل بسعاد ، أحسن فيها وصفها ، وذكر من محاسنها ما يروق ، لكنه لم يوغل فى الوصف الحسى إيغال حسان ، ونهج نهجاً آخر ، فعرض لخلقها فى تلونه ، وما طبعت عليه من فَجْع ووَلْع وخُلْف ومَطْل ، وقد تعرض فيها لما تعرض له حسان فى جاهليته وإسلامه من وصف الفم والريق ، فقال :

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِى ظَلْمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ ... كأَنَّهُ مُنْهَلٌ بالرَّاح مَعْلُولُ [٢]

شُجَّتْ بِذِى شَبَمٍ مِنْ ماءِ مَحْنِيَةٍ ... صافٍ بأَبْطَحَ أَضحَى وهو مَشْمُولُ [٣]

تَنْفِى الرياحُ القَذَى عنه وأَفْرَطَهُ ... مِنْ صَوْبِ غادِيَةٍ بِيضٌ يَعَالِيلُ [٤]

أما معن بن أوس فيذكر جمال حبيبته وتنعمها ، وعلو نسبها ودلها ، وحسن حديثها ، ومبلغ حبه إياها ، ويصف حالها معه من قرب ونأى ، وهجر ومطل وتنكر ، ويطيل فيه ، مع جمال المعنى ونقاء اللفظ . وطلاوة الأسلوب ، فهو أحلى من صاحبنا غزلا ، وأشمل وصفا ، وأوسع فى هذا المجال فنوناً ، وهو إلى ذلك لا يجعل المحاسن الجسدية المستورة موضع همه . استمع إلى قوله [٥] :

وفى الحَىِّ نُعْمٌ قُرَّةُ العَيْنِ والهَوى ... وأَحسنُ مَن يَمشِى على قَدَمٍ نُعْمُ

وكانتْ لِهذا القَلْبِ نُعْمٌ زَمَانَةً ... خَبَالاً وسُقْماً لا يُعَادِلُه سُقْمُ [٦]

مُنَعَّمَةٌ لم تُغْذَ فى رِسْلِ ثَلَّةٍ ... ولم تَتَجَاوَبْ حَوْلَ كِلَّتِها البَهْمُ [٧]

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/١٤٧ .

(٢) العوارض : جمع عارض أو عارضة ، وهى الأسنان أو الضواحك خاصة . الظلم : ماء الأسنان وبريقها أو هو رقتها وبياضها . منهل : مسقى ، من النهل وهو الشرب الأول ، الراح : الخمر . معلول مسقى مرة بعد مرة ، من العلل وهو الشرب الثانى .

(٣) شجت : مزجت . الشبم : شدة البرد . المحنية : منعطف الوادى . الأبطح : المسيل الواسع فيه دقاق الحصى ، مشمول ضربته ريح الشمال حتى برد .

(٤) القذى : ما يقع فى الماء ونحوه فيشوبه ويكدره . أفرطه : سبق إليه وملأه . الصوب : المطر . الغادية : السحابة تمطر غدوة . اليعاليل : الفقاقيع التى تعلو وجه الماء .

(٥) ديوانه ص ٢ .

(٦) الزمانة : الحبل والعاهة . الخبال : الفساد .

(٧) الرسل : اللبن . الثلة : الجماعة من الغنم . الكلة : الستر الرقيق يخاط كالبيت . البهم : صغار الغنم .

سَبَتْنِى بِعَيْنَىْ جُؤْذُرٍ بِخَمِيلَةٍ ... وجِيدٍ كجيدِ الرِّئْمِ زَيَّنَهُ النَّظْمُ[١]

ووَحْفٍ يُثَنَّى فى العِقَاصِ كأَنَّهُ ... عليها إذَا دَنَّتْ غَدائِرَها كَرْمُ[٢]

وأَقْنَى كحَدِّ السَّيفِ يَشْرَبُ قَبْلَها ... وأَشْنَبَ رَفَّافِ الثَّنَايَا له ظَلْمُ[٣]

لها كَفَلٌ رَابٍ وساقٌ عَمِيمَةٌ ... وكَعْبٌ عَلاَهُ اللَّحْمُ ليس له حَجْمُ[٤]

تَصَيَّدُ أَلْبَابَ الرجالِ بأُنْسِها ... ويَقْتُلُهمْ منها التَّدَلُّلُ والنَّغْمُ[٥]

لُبَاخِيَّةٌ عَجْزَاءُ جُمٌّ عِظَامُها ... نَمَتْ فى نَعيمٍ وانْمَهَلَّ بها الجِسْمُ[٦]

إذَا انْتَسَبَتْ مَدَّتْ يَدَيْها إلى العُلا ... وصَدَّقَها الإسلامُ والحَسَبُ الضَّخْمُ

كأَنِّى إذَا لم أَلْقَ نُعْماً مُجَاوِرٌ ... قَبائلَ مِنْ يَأْجُوجَ من دُونِها الرَّدْمُ[٧]

وإلى قوله فى نعم أيضاً[٨] :

إذا أَنتَ عَزَّيْتَ الفؤادَ عن الصِّبَا ... تَذَكَّرْتُ منها الأُنْسَ والمَنْطِقَ الرِّسْلا

وذا أُشُرٍ عَذْباً تَرِفٌّ غُرُوبُهُ ... وسالِفَةً فى طُولِها جُدِلَتْ جَدْلا[٩]

ونَحْرًا كفَاثُورِ اللُّجَيْنِ ونَاهِدًا ... وبَطناً كغِمْدِ السَّيْفِ لم يَدْرِ ما الحَمْلا[١٠]

---

(١) سبتنى : أذهلتنى وذهبت بعقلى . الجؤذر : ولد البقرة الوحشية . الرئم : الظبى الخالص البياض .

(٢) الوحف الكثير . العقاص : جمع عقيصة وهى الضفيرة وما جمع من الشعر وعقص .

(٣) الأقنى : الأنف يرتفع فى استواء . الأشنب : الثغر ذو البرد والعذوبة فى الأسنان . الرفاف : الكثير الماء . الظلم : ماء الأسنان وبريقها .

(٤) راب : مشرف مرتفع . عميمة : تامة . الحجم : النتوء والبروز فعظامها غائبة فى اللحم .

(٥) النغم : حسن الكلام ورخامة الصوت .

(٦) لباخية : كثيرة اللحم . عجزاء : ضخمة العجيزة . وجم عظامها : ليس لعظامها حجم . انمهل : طال .

(٧) يأجوج : قوم من أولاد يافث بن نوح بادوا .

(٨) ديوانه ص ١٦ .

(٩) الرسل : الرقيق المتئد .

(١٠) الأشر : تحديد الأسنان وهو دليل الحداثة والرقة . ترف غروبه : تبرق حدوده لكثرة مائه . السالفة : صفحة العنق .

(١١) النحر : الصدر واللبة . فاثور اللجين : خوان الفضة . الناهد : الثدى البارز . كغمد السيف : أى ضامرة مهفهفة .

فإنْ تَكُ نُعْمٌ صَرَّمَتْنِى فإنها تَرِيشُ وتَبْرِى لى إذا جِئْتُها النَّبْلا
تَبَدَّى فتَدْنُو ، ثم تَنْأَى بِوَصْلِها لِتَبْلُغَ مِنِّى ، أو لِتَقْتُلَنِى قَتْلا
فما الحَبْلُ من نُعْمٍ بِباقٍ جَدِيدُهُ ولا كائنٌ إلا المواعيدَ والمَطْلا

والحطيئة قد يلتقى بحسان فى الحديث عن الطيف ، وفى تشبيه من يحب بالظبية المُطفِل ، وفى وصف الفم والريق ، على فضل ما بينهما ، فقوله[1] :

نَأَتْكَ أُمَامَةُ إلاَّ سُؤَالاً وأَبْصَرْتَ منها بِطَيْفٍ خَيَالاً
خَيَالاً يَرُوعُكَ عندَ المَنَامِ ويَأْبَى معَ الصُّبْحِ إلاَّ زَوَالاً

يشابه قول حسان :

جِنِّيَّةٌ أَرَّقَنِى طَيْفُهـا تَذْهَبُ صُبحاً وتُرَى فى المَنَامْ

وقوله[2] :

كَعَاطِيَةٍ مِنْ ظِباءِ السَّلِيـ لِ حُسَّانَةُ الجِيدِ تُزْجِى غَزَالاً[3]

وإن دل على جمال جيدها قريب من قول حسان على حسنه :

هل هِىَ إلاَّ ظَبيةٌ مُطْفِلٌ مَأْلَفُها السِّدْرُ بِنَعْفَىْ بَرَامْ
تُزْجِى غـزالاً فاتِرًا طَرْفُهُ مُقَارِبَ الخَطْوِ ضَعِيفَ البُغَامْ[4]

وقد أخذ الحطيئة قول حسان :

تَبَلَتْ فؤَادَكَ فى المَنَامِ خَرِيدةٌ تَسْقِى الضَّجِيعَ بِبَارِدٍ بَسَّامِ
كالمِسْكِ تَخْلِطُه بماء سَحَابَةٍ أو عَاتِقٍ كَدَمِ الذَّبِيحِ مُدَامِ
نُفُجُ الحَقِيبَةِ بَوْصُها مُتَنَضِّدٌ بَلْهاءُ غيرُ وَشِيكَةِ الأَقْسَامِ[5]

(١ ، ٢) ديوانه ص ٣١ .
(٣) العاطية : التى تتناول الغصن بيديها إذا ارتفع عنها . السليل : الوادى ينبت الطلح والسمر . حسانه : حسنة .
(٤) سبق شرح هذين البيتين .
(٥) سبق شرح هذه الأبيات .

فزاد فيه وأحسن حين قال[١] :

مُبتَّلَةٌ يَشْفِي السقيمَ كَلاَمُها لها جِيدُ أَدْمَاءِ العَشِيِّ خَذُولِ[٢]
وتَبْسِمُ عن عَذْبٍ زُلالٍ كأَنَّهُ نِطَافَةُ مُزْنٍ صُفِّقَتْ بشَمُولِ[٣]

ليس لحسان غزل مكشوف

إلا أن الحطيئة أقرب إلى المذهب الجاهلى فى الغزل المكشوف ، حين يعرض لما يكون بينه وبين صاحبته ، ويصف محاسن جسمها على غرار ما كان من الأعشى وامرئ القيس ، فيقول[٤] :

إذا النَّوْمُ أَلْهاها عن الزَّادِ خِلْتَها بُعَيْدَالكَرَى باتتْ على طَيٍّ مُجْسَدِ[٥]
إذا ارتَفَقَتْ فَوْقَ الفِراشِ تَخَالُها تَخافُ انْبِتَاتَ الخَصْرِ مالم تَشدَّدِ[٦]
وتُضْحِي غَضِيضَ الطَّرْفِ دُونِى كأَنما تَضَمَّنَ عينيها قذًى غيرُ مُفْسِدِ[٧]
إذا شئتَ بَعْدَ النومِ أَلقيتَ ساعِدًا على كَفَلٍ رَيَّانَ لم يَتَخَدَّدِ[٨]
لها طِيبُ رَيًّا إنْ نَأَتْنِي،وإنْ دَنَتْ دنَتْ وَعْثَةً فَوْقَ الفراشِ المُمَهَّدِ[٩]
خَمِيصَةُ ما تحتَ الثيابِ، كأَنَّها عَسِيبٌ نَما فى ناضِرٍ لم يُخَضَّدِ[١٠]

---

(١) ديوانه ص ٤٣ .
(٢) المبتلة : التى عظم أسفلها ولطف أعلاها دون خصرها . أدماء : سمراء . خذول : متخلفة عن صواحبها .
(٣) النطافة : القطرات الصافية . صفقت بشمول : مزجت بخمر .
(٤) ديوانه ص ٢١ .
(٥) مجسد : مصبوغ بالزعفران ، يريد أنها خميصة البطن تشبه طياته طيات ثوب مجسد .
(٦) ارتفقت : اتكأت . انبتات : انقطاع .
(٧) أى أنها لا تنظر إليه حياء ، كأن بعينيها قذى لم يفسدها .
(٨) الريان : الممتلىء . يتخدد : يتثنى ويذهب لحمه من بعض المواضع .
(٩) الريا : الرائحة . وعثة : سمينة .
(١٠) خميصة : قليلة لحم البطن . العسيب : الجريدة من النخل مستقيمة دقيقة كشط خوصها . يخضد : ينثنى من غير كسر .

تُفَرِّقُ بالمِذْرَى أَثِيثاً نَبَاتُهُ على واضِحِ الذِّفْرَى أَسِيلِ المُقَلَّدِ[١]
تَضَوَّعُ رَيَّاها إذا جئتُ طارقاً كَرِيحِ الخُزَامَى فى نباتِ الخَلاَ النَّدِى[٢]

ويشبهه فى هذا النابغة الجعدى ، إذ يقول[٣] :

فلما دَنَوْنَا لِجَرْسِ النُّبَاحِ ولا نُبْصِرُ الحَىَّ إلا الْتِمَاسَا
أَضاءَتْ لنا النَّارُ وَجْهاً أَغَرْ رَ مُلْتَبِساً بالفؤادِ الْتِباسا
يُضِيءُ كضَوءِ سِراجِ السَّلِيـ ـطِ ، لم يَجْعَلِ اللهُ فيهِ نُحَاسَا[٤]
بآنسةٍ غيرِ أُنْسِ القِرَا فِ ، وتَخْلِطُ بالأُنْسِ منها شِمَاسَا[٥]
إذا ما الضَّجِيعُ ثَنَى جِيدَها تَدَاعَتْ ، وكانتْ عليهِ لِبَاسَا

على حين لا تجد لحسان شعراً من هذا الطراز .

الوصف

اتساع مجال الوصف

وباب الوصف من أوسع أبواب الشعر ، وله مداخل مختلفة تصله بفنونه الأخرى ، وكما وجد الوصف فى أيام العرب وحروب الجاهلية ، وفى مظاهر الطبيعة الكثيرة المخيمة فى آفاق البادية مجالا واسعاً ، فقد وجد فى غزوات الإسلام ومشاهده ، وما كان من صور الحياة وأدوات الحرب ، وما يعن للشاعر من تصوير أثر ذلك فى نفسه ، ووصف ما يكون من خاصة أمره منفسحاً عريضاً .

أثر الإسلام فى صور الوصف وألوانه

ولم يكن الوصف من الأغراض التى تأثر كمها بالإسلام[٦] ، وإن اختلفت

---

(١) المذرى : المراد بها المشط . أثيثاً : طويلا غزيراً . الذفرى : العظم الناتئ خلف الأذن . الأسيل : المستطيل المستوى . المقلد : موضع القلادة .

(٢) تضوع رياها تذيع رائحتها الطيبة . الطارق : من يأتى ليلا . الخزامى : نبت طيب الرائحة . الخلا : البقل وكل ما اختليته أى قطعته فهو خلا .

(٣) الشعر والشعراء ص ٩٨ . الأغانى ٤/١٢٩ .

(٤) السليط : الزيت . النحاس : دخان لا لهب فيه .

(٥) القراف : المخالطة والمقاربة . الشماس : صعوبة الخلق وعدم الانقياد .

(٦) انظر الجدول رقم ٢ .

به ألوانه ، فحسان يصف غزوة بدر[١] ، وما فعلوا بالمشركين فى أحد[٢] والأحزاب فى غزوة الخندق[٣] ، وما كان من سير الجيش إلى بدر الآخرة[٤] ، وحصار بنى قريظة وما أصابهم[٥] ، ويصف فى أثناء ذلك الطعن والضرب ، والسيف والناقة ، والفرسان والخيل[٦] ، ويصف الثوار فى دار عثمان بن عفان[٧] ، ومقتل كعب بن الأشرف وسلام بن أبى الحقيق اليهوديين[٨] ، ثم يصف أشياء تتصل بحياته ، من المدينة وإغارة قومه عليها[٩] ، وشعره وقوافيه[١٠] ، وحاسديه[١١] ورحيله إلى مكة[١٢] .

من وصف بدر

فمن قوله فى وصف صرعى غزوة بدر[١٣] :

طَحَنَتْهُمُ واللهُ يُنْفِذُ أَمْـرَهُ حربٌ يُشَبُّ سَعِيرُها بِضِرَامِ
من كلِّ مَأْسورٍ يَشُدُّ صِفادَهُ صقرٌ إذا لاَقَى الكَتِيبةَ حَامِ
ومُجَدَّلٍ لا يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةٍ حتى تَزُولَ شَوَامخُ الأَعْلاَمِ
ومُرَنَّحٍ فيه الأَسِنَّةُ شُرَّعاً كالجَفْرِ غَيْرِ مُقابَلِ الأَعْمامِ[١٤]

---

(١) الديوان ، الأرقام ٣ ، ١١ ، ١٥ .
(٢) رقم ١١ .
(٣) رقم ١٤ .
(٤) رقم ١٦ .
(٥) الرقمان ١٦٧ ، ١٦٨ .
(٦) الأرقام ١ ، ٣ ، ٦ ، ٩ ، ٧٩ .
(٧) رقم ٢٠ .
(٨) رقم ٩٧ .
(٩) رقم ٦ .
(١٠) الرقمان ٧ ، ٥٢ .
(١١) رقم ١٤٣ .
(١٢) رقم ١٥٦ وانظر فى كل ما سلف الجدول رقم ٥ .
(١٣) الديوان رقم ٣ .
(١٤) سبق شرح هذه الأبيات .

وهو وصفٌ خالٍ من حركة الحرب وتصوير المعركة ، وليس بغريب من حسان أن ينحرف فى وصفه عن هذا الاتجاه ، فهو لم يكن يشهد المعارك ، إنما كان يقول الشعر فى أعقابها ، ويحكى نتائجها ، كما أسلفنا عند الكلام فى سيرته .

ومن قوله يصف المشركين والمسلمين ببدر[1] :

غَداةَ كأَنَّ جَمْعَهُمُ حِرَاءٌ ... بَدَتْ أَركانُه جُنْحَ المَغِيبِ[2]

فَلاقَيْنَاهُمُ منَّا بِجَمْعٍ ... كأُسْدِ الغابِ من مُرْدٍ وشِيبِ

أَمــامَ محمدٍ قد آزَرُوهُ ... على الأَعداءِ فى رَهَجِ الحُروبِ[3]

بأَيْدِيهِمْ صَوارِمُ مُرْهَفَاتٌ ... وكلُّ مُجَرَّبٍ خَاظِى الكُعُوبِ

فغادَرْنَا أَبا جَهْلٍ صَرِيعاً ... وعُتْبةَ قد تَرَكْنَا بالجَبُوبِ

وشَيْبةَ قد تَرَكْنَا فى رِجالٍ ... ذَوِى حَسَبٍ إذا نُسِبُوا حسِيبِ

يُنَادِيهِمْ رسولُ اللهِ لمَّا ... قَذَفْنَاهُمْ كَبَاكِبَ فى القَلِيبِ[4]

أَلَمْ تَجِدُوا حديثى كان حَقًّا ... وأَمْرُ اللهِ يَأْخُذُ بالقُلوب ؟

من وصف أحد :

ويصف يوم أحد ، فتراه مع ما أصاب المسلمين من هزيمة يصف بلاءهم ، ويفرّ فى براعة من ذكر الهزيمة والنصر والتعرض لنتيجة المعركة إلى ذكر ما كان من الجانبين من المدافعة ، مقرراً أن كلا من الفريقين قد أصاب من صاحبه ، وكذلك الحرب أحياناً دول ، قائلا[5] :

ولقد نِلْتُمْ ونِلْنَا مِنْكُمُ ... وكَذَاكَ الحربُ أَحياناً دُوَلْ

---

(١) الديوان رقم ١٥ .

(٢) حراء : جبل بمكة . جنح : ناحية وجانب .

(٣) رهج الحروب : غبارها .

(٤) تقدم شرح هذه الأبيات .

(٥) الديوان رقم ١١ ، وفى سيرة ابن هشام مع خلاف يسير .

إذْ شَدَدنا شَدةً صادقةً فأَجَأْناكم إلى سَفْحِ الجَبَلْ[١]

إذْ تُوَلُّونَ على أَعْقابِكُمْ هُرَّباً فى الشِّعْبِ أَشباهَ الرَّسَلْ[٢]

نَضَعُ الخَطِّىَّ فى أَكتافِكُمْ حيثُ نَهْوِى عَلَلاً بَعْدَ نَهَلْ[٣]

فَسَدَحْنــا فى مَقامٍ واحدٍ منكمُ سَبْعينَ غيرَ المُنْتَحَلْ[٤]

وأَسَرْنا منكمُ أَعــدادَهُمْ وانصرفتمْ مِثلَ إفلاتِ الحَجَلْ[٥]

ضاق عنا الشِّعْبُ إذ نَجْزَعُهُ وَمَلأْنا الفُرْط منهم والرِّجَلْ[٦]

وتَرَكْنا من قريشٍ جَمْعَهُمْ مثلَما جُمِّعَ فى الخِصْب الهَمَلْ[٧]

فتراه يرسم هنا صورة متحركة للمعركة ، تلمح فيها مايتبادله المتقاتلون من الكر والفر والضرب والطعن ، وهيئة الفرار ، ومواقع المتحاربين . وكثافة الجيش وهو يقطع الطريق . ولعل حسان قد سمع من المجاهدين ما كان من أمرهم مع المشركين يوم أحد ، أو لعله قد شهده من رأس حصنه فارع كما شاهد منه الحربة التى أهوت بها يد وحشى إلى حمزة فى ذلك اليوم[٨] ! !

الخندق

العدوان والانهزام

ويصف غزوة الخندق ، وما كان من تألب جموع المشركين وهجومهم على المدينة ، وما صنع الله بهم حين رد كيدهم إلى نحورهم ، وكفى المؤمنين قتالهم ، فيقول :

---

(١) أجأناكم : ألجأناكم .

(٢) الرسل : الإبل المرسلة بعضها فى إثر بعض .

(٣) الخطى : الرماح .

(٤) سدحنا : صرعنا . المنتحل : الباطل المختلق .

(٥) الحجل : طائر فى حجم الحمام يعيش فى الأعالى .

(٦) الشعب : الطريق بين جبلين . نجزعه : نقطعه . الفرط : سفح الجبل ، وآكام تشبه التلال . الرجل : جمع رجلة مسايل الماء فى الحرات إلى السهل .

(٧) الإبل المهملة ترسل فى المرعى بدون راع .

(٨) انظر ص ١٧٠ من هذا الكتاب .

(٩) الديوان رقم ١٤ .

أَمُّوا بغَزْوِهِمُ الرسولَ وأَلَّبُوا ... أهلَ القُرَى وبَوَادِيَ الأعرابِ[1]
جَيْشٌ عُيَيْنَةُ وابنُ حربٍ فيهِمُ ... مُتَخَمِّطِينَ بحَلْبَةِ الأحزابِ[2]
حتى إذا وَرَدُوا المدينةَ وارْتَجَوْا ... قَتْلَ النبيِّ ومَغْنَمَ الأسلابِ
وَغَدَوا علينا قادرين بأَيْدِهِمْ ... رُدُّوا بغَيْظِهِمُ على الأَعْقَابِ[3]
بِهُبُوبِ مُعْصِفَةٍ تُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ ... وجُنودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الأَرْبَابِ
وكفى الإلهُ المؤمنين قِتالَهُمْ ... وأَثابَهُمْ فى الأَجْرِ خيرَ ثَوَابِ
من بَعْدِ ما قَنَطُوا ففَرَّجَ عنهُمُ ... تَنْزِيلُ نَصٍّ مَلِيكِنا الوَهَّابِ
وأَقَرَّ عَيْنَ محمدٍ وصِحابِهِ ... وأَذلَّ كلَّ مُكَذِّبٍ مُرْتابِ

وحسان ينظم فى شعره هذا قوله تعالى: «وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ وكان الله قَوِيًّا عَزِيزًا». ولكن الإحسان لا يواتيه؛ ففى قوله «سيد الأرباب» ما لا يرتاح إليه الذوق. ولا يتفق وروح الإسلام، ولا يناسب قدر الله تعالى، وقوله «تنزيل نص مليكنا الوهاب» نظم لا قوام به، ولا جميل معنى، وليس فى العبارتين إلا قلق أو ضعف، وليس لهما من ميزة إلا إقامة الوزن وتسوية القافية، التى بناها على حرف الباء عامداً ليدخل فيها كلمة «الأحزاب».

تصحيح

وصاحب «الهجاء والهجاءون» يذكر أن هذه القصيدة قيلت فى يوم أحد[4]، وهى كما ترى فى غزوة الأحزاب.

---

(١) أموا: قصدوا. ألبوا: جمعوا.
(٢) متخطمين: شديدى الغضب، لهم ثورة وجلبة.
(٣) أيدهم: قوتهم.
(٤) ص ٢١٣.

من جيد وصفه

بدر الموعد . الجيش والزحف

ويصف سير جيش المسلمين إلى بدر الموعد بقوله[١] :

أَقَمْنَا على الرَّسِّ النَّزِيعِ لَيَالِيَا ... بِأَرْعَنَ جَرَّارٍ عَرِيضِ المَبَارِكِ[٢]

بِكُلِّ كُمَيْتٍ جَوْزُهُ نِصفُ خَلْقِهِ ... وقُبٍّ طِوَالٍ مُشْرِفاتِ الحَوَارِكِ[٣]

تَرَى العَرْفَجَ العَامِيَّ تَذْرِى أُصُولَهُ ... مَنَاسِمُ أَخْفافِ المَطِيِّ الرَّوَاتِكِ[٤]

إذا ارتَحَلُوا مِن منزلٍ خِلتَ أَنهُ ... مُدَمَّنُ أَهْلِ المَوْسِمِ المُتَعارِكِ[٥]

نَسِيرُ فلا تَنْجُو اليَعَافِيرُ وسْطَنا ... ولو وَأَلَتْ منَّا بِشَدٍّ مُوَاشِكِ[٦]

ذَرُوا فَلَجَاتِ الشامِ قد حالَ دُونَهَا ... جِلادٌ كأَفْوَاهِ المَخَاضِ الأَوَارِكِ[٧]

ولا يخفى ما فى هذا الشعر من الجزالة والفخامة والقوة المناسبة لمقتضى الحال ، من وصف جيش عظيم يسير متهدداً العدو ، فينكل عنه العدو ، وقد اختار له البحر الطويل لعظيم غنائه فى مثل هذا الموضع ، بتعدد مقاطعه ، وطول نفسه .

---

(١) الديوان رقم ١٦ .

(٢) الرس : البئر . النزيع : التى تنزع دلاؤها بالأيدى لقرب قعرها . الأرعن : الجيش المضطرب لكثرته كأنه الجبل .

(٣) الكميت : ما لونه بين السواد والحمرة . الجوز : الوسط . القب : الضوامر . مشرفات الحوارك عاليات . والحوارك : جمع حارك وهو أعلى الكاهل .

(٤) العرفج : شجر قدر ذراع أو أكثر يشتعل وهو أخضر ليبسه . العامى : الذى أتى عليه عام . تذرى أصوله : تطيح بها وتقلعها . المناسم : جمع منسم وهو طرف خف البعير . الرواتك : جمع راتك وهو السريع السير .

(٥) مدمن : فيه الدمن وهى آثار القوم فى حلولهم .

(٦) اليعافير : الظباء . وألت : طلبت النجاة . بشد مواشك : بجرى سريع .

(٧) الفلجات : الأودية والأنهار الصغيرة . جلاد : ضرب . المخاض الأوارك : الإبل الحوامل ترعى الأراك ، وهو شجر معروف .

بنو قريظة

ويقول فيما أصاب بنى قريظة [١] :

أَصابَهُمُ بَلاءٌ كان فيهِ ... شَوًا ماقد أَصابَ بَنى النَّضِيرِ [٢]
غَدَاةَ أَتاهُمُ يَمشِى إليهِمْ ... رسولُ اللهِ كالقَمَرِ المُنِيرِ
له خَيْلٌ مُجَنَّبَةٌ تَعَادَى ... بِفِرْسانٍ عليها كالصُّقُورِ [٣]
تَرَكْناهُمْ وما ظَفِرُوا بِشَىْءٍ ... دِماؤُهُمُ عليهم كالعَبِيرِ [٤]
فَهمْ صَرْعَى تَحُومُ الطَّيْرُ فيهِمْ ... كذاكَ يُدَانُ ذو الفَنَدِ الفَخُورُ [٥]

وفى البيت الأخير إقواء .

الطعن والضرب

ويصف الطعن والضرب فيقول [٦] :

بِطَعْنٍ كَإِيزَاغِ المَخَاضِ رَشَاشُهُ ... وضَرْبٍ يُزِيلُ الهَامَ عن كلِّ مَفْرِقِ [٧]

الناقة

ويصف الناقة فيقول [٨] :

وإنى إذا ما الهَمُّ ضَافَ قَرَيْتُهُ ... زَمَاعاً ومِرْقالَ العَشِيَّاتِ عَيْهَلاً [٩]

---

(١) الديوان ١٦٨ .
(٢) الشوى : الأمر الهين .
(٣) خيل مجنبة : تقاد إلى جانبهم . تعادى : تجرى بسرعة .
(٤) العبير : الزعفران .
(٥) الفند : الميل عن الحق .
(٦) الديوان رقم ٧٦ .
(٧) تقدم شرح البيت .
(٨) الديوان رقم ٦ .
(٩) ضاف : نزل . قريته : قدمت له . الزماع : المضى فى الأمر والعزم . مرقال : مسرعة . العيهل : الناقة النجيبة الشديدة .

مُلَمْلَمَةً خَطَّارَةً لو حَمَلْتَها على السَّيْفِ لم تَعْدِلْ عن السَّيفِ مَعْدِلاَ[١]
إذا انْبَعَثَتْ مِنْ مَبْرَكٍ غادرَتْ بهِ تَوَائِمَ أمثالَ الزَّبَائِبِ ذُبَّلاَ[٢]
فإنْ بَرَكتْ خَوَّتْ على ثَفِنَاتِها كأَنَّ على حَيْزُومِها حَرْفَ أَعْبَلاَ[٣]
مُرَوَّعَةً لو خَلْفَها صَوَّ جُنْدُبٌ رأَيتَ لها من رَوْعَةِ القَلْبِ أَفْكَلاَ[٤]

وهذا الوصف من أجود أوصاف الناقة فى معانيه ، وجزالة ألفاظه ، وقوة مقاطعه ، واختيار بحر الشعر المعين على حسن إبراز ما يريده الشاعر من ذلك ؛ ولو أنك أضفته إلى قوله السابق فى وصف جيش بدر الموعد ، وقرنتهما إلى شعره الجاهلى ، لم تستطع أن تجد بينهما وبينه فارقاً فى المنهج والأسلوب واللفظ .

الفرس

ومن هذا اللون قوله يصف الفرس[٥] :

جَرْدَاءُ تَمْزَعُ فى الغُبارِ كأَنَّها سَرْحانُ غابٍ فى ظِلاَلِ غَمَام
تَذَرُ العَنَاجِيجَ الجِيادَ بقَفْرَةٍ مَرَّ الدَّمُوكِ بمُحْصَدٍ ورِجَامِ
ملأَتْ به الفَرْجَيْنِ فَارمَدَّتْ بهِ وثَوَى أَحِبَّتُهُ بِشَرٍّ مُقَامِ[٦]

فتح مكة . الخيل المغيرة

ويصف ما تخيله من هيئة الخيل المغيرة على مكة يوم الفتح فيقول[٧] :

---

(١) ململمة : غليظة مجتمعة اللحم معتدلة الخلق . خطارة : تحرك ذنبها نشاطاً ومرحاً . حملتها على السيف : ألجأتها إليه ، أى أنها جريئة ماضية .

(٢) توائم أمثال الزبائب : يقصد بعراً يشبه الزبيب فى صغره لطول سفرها وقلة رعيها .

(٣) خوت على ثفناتها : تجافت لضمورها عند بركها فلم يلحق جانبها الأرض . والثفنة : الركبة وما مس الأرض من الكركرة وأصول الأفخاذ . الأعبل : الجبل الأبيض والحجر الأبيض الغليظ .

(٤) مروعة : كثيرة التلفت لنشاطها وذكائها كأن بها خوفاً . الأفكل : الرعدة .

(٥) الديوان رقم ٣ .

(٦) الجرداء : الفرس ذات الشعر القصير . تمزع : تثب . العناجيج : جمع عنجوج وهو الرائع من الخيل . الدموك : البكرة يستقى بها على البئر ونحوها . المحصد : الحبل الشديد الفتل . والرجام : الحجر يربط بالدلو لتكون أسرع فى هبوطها بالبئر . وفى الديوان الذمول بدل الدموك ، وهى الناقة تسير سيراً ليناً ارمدت : أسرعت .

(٧) الديوان رقم ١ .

عَدِمْنَا خَيْلَنا إنْ لم تَرَوْها تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُها كَدَاءُ[١]
يُبَارِينَ الأَسِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ على أَكْتافِها الأَسَلُ الظِّمَاءُ[٢]
تَظَلُّ جِيَادُنا مُتَمَطِّرَاتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النساءُ[٣]

فنرى حسان فى شعره الإسلامى يلخص الدعاء بقوله « عدمنا خيلنا » كما كان يفعل فى جاهليته ، ونراه يرسم صورة متحركة للخيل المغيرة ، حتى لكأنك تراها وهى تثير النقع ، وتراها ورماح فرسانها مشرعة فوق أعناقها ، فيخيل إليها أن الرماح تسابقها فتسعى جاهدة لسبقها ، وتراها مسرعة فى كرها وفرها ، وقد أعجز النساء أمرها فخرجن يضربن وجوهها غيظاً ، أو يمسحنها ملقا .

وقريب من معنى بيته الثانى قول كعب بن مالك[٤]:

يُنَازِعْنَ الأَعِنَّةَ مُصْغِياتٍ إذا نادَى إلى الفَزَعِ المُنَادِى

وما أجمل قول لبيد يصف جواده ، ويتناول المعنى نفسه[٥]:

ولقد أَغْدُو وما يَعْدَمُنِى صاحبٌ غيرُ طَوِيلِ المُحْتَبَلْ[٦]
ساهِمُ الوَجْهِ شَدِيدٌ أَسْرُهُ مُغْبَطُ الحَارِكِ مَحبُوكُ الكَفَلْ[٧]
بِأَجَشِّ الصوتِ يَعْبُوبٍ إذا طَرَقَ الحَىَّ مِن الغَزْوِ صَهَلْ[٨]
يَطْرُدُ الزُّجَّ يُبَارِى ظِلَّهُ بأَسِيلٍ كالسِّنانِ المُنْتَخَلْ[٩]

---

(١) النقع : الغبار . كداء : الثنية العليا بمكة مما يلى مقابرها .
(٢) يبارين الأسنة : يسابقن الرماح . الأسل الظماء : الرماح المتعطشة للدماء .
(٣) متمطرات : مسرعات . تلطمهن : يضربن خدودهن . الخمر : جمع خمار وهو ما تغطى به المرأة رأسها .
(٤) سيرة ابن هشام ٣/٢٧٦ .
(٥) ديوانه ص ١٤ .
(٦) المحتبل : محتبل الفرس أرساغه .
(٧) مغبط الحارك : ممتلئه ، والحارك أعلى الكاهل ، وعظم مشرف من جانبيه ، ومنبت أدنى العرف إلى الظهر .
(٨) اليعبوب : الفرس السريع الطويل . والجواد السهل فى عدوه ، والبعيد القدر فى الجرى . طرق الحى : جاءه ليلا .
(٩) الزج : الحديدة فى أسفل الرمح . الأسيل : المستوى فى استطالة .

وقريب منه قوله يصف ناقته[١] :

فعَدَّيْتُها فيهِ تُبَارِى زِمَامَها تُنَازِعُ أَطْرَافُ الإِكَامِ النَّقَائِلا[٢]

السيف

ويصف السيف ، يدافع به عن رسول الله ، فيقول[٣] :

فقُمْنا بأَسْيَافِنا دُونَهُ نُجَالِدُ عنهُ بُغَاةَ الأُمَمْ
بكلِّ صَقِيلٍ له مَيْعَةٌ رَقِيقِ الذُّبَابِ ، غَمُوسٍ ، خَذِمْ
إذا ما يُصَادِفُ صُمَّ العِظَا مِ ، لم يَنْبُ عنها ، ولم يَنْثَلِمْ[٤]

فتراه فى هذه القصيدة أيضاً يعرض عليك صورة مملوءة بالحركة ، واضحة المعالم ، وقد اختار قافية قوية ، لها مقاطع حادة ورنين عال ، يلائمان ما تمثله من الخشونة والقوة والهجوم والضرب . وبحراً من الشعر مألوفاً للعرب وإن لم يكثروا من استعماله هو المتقارب .

وصف المدينة

ومن وصفه الجغرافى للمدينة بما فيها من جداول ومياه وخصب ونخيل وآطام وجبال وخيل وأنعام ، قوله[٥] :

لنا حَرَّةٌ مَأْطُورَةٌ بِجِبالِها بَنَى المجدُ فيها بيْتَهُ فتَأَهَّلا
بها النخلُ والآطَامُ تَجْرِى خِلالَها جَدَاوِلُ قد تَعْلُو رَقَاقاً وجَرْوَلا
إذا جَدْوَلٌ منها تَصَرَّمَ ماؤُهُ وَصَلْنا إليه بالنَّواضِحِ جَدْوَلا
على كُلِّ مِفْهَاقٍ خَسِيفٍ غُروبُها تُفَرِّغُ فى حَوْضٍ مِن الصَّخْرِ أَنْجَلا

---

(١) ديوانه ص ١٨ .
(٢) النقائل : جمع نقيلة وهى رقعة الخف إذا حفى .
(٣) الديوان رقم ٩ .
(٤) تقدم شرح هذه الأبيات .
(٥) الديوان رقم ٦ .

له غَلَلٌ فى ظِلِّ كلِّ حَدِيقةٍ يُعَارِضُ يَعْبوباً من الماءِ سَلْسَلا
إذا جئتَها أَلْفَيْتَ فى حَجَرَاتِها عَنَاجِيجَ قُبًّا والسَّوَامَ المُؤَبَّلا
جَعَلنا لها أَسْيافَنَا ورِماحَنـــا من الجَيْشِ والأَعرابِ كَهْفاً ومَعْقِلا[1]

وصفه شعره

ومن قوله يصف شعره فى تهديده لأمية بن خلف[2] :

سأَنشُرُ إنْ بَقِيتُ لَكمْ كَلامـــاً يُنَشَّر فى المَجَامِعِ من عُكَاظِ
قَوَافِىَ كالسِّلاَمِ إذا استَمَرَّتْ مِن الصُّمِّ المُعَجْرَفَةِ الغِلاظِ[3]
تَزُورُك إنْ شَتَوْتَ بكلِّ أَرْضٍ وتَرْضَخُ فى مَحَلِّكَ بالمَقَاظِ[4]
بَنَيْتُ عليكَ أَبياتاً صِلاَباً كأَسْرِ الوَسْقِ قُعِّصَ بالشِّظَاظِ[5]
مُجَلِّلَةً تُعَمِّمُهُ شَنَـــاراً مُضَرَّمَـــةً تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ[6]

وصفه تصوير لأحداث الإسلام

وواضح مما تقدم أن حسان قد اتجه بوصفه فى الجملة إلى تصوير أحداث الإسلام وما يلابسها . فإن ألم مع ذلك بشىء مما جرت عادة الشعراء بوصفه ، كالفرس والناقة والسيف ونحوها ، تناوله على أنه جزء من ذلك المشهد الإسلامى الذى يتحدث عنه ، فلا يركز عنده انتباهه أو اهتمامه ، بل يعبر منه عبوراً . وبقى غيره من معاصريه على طريقته ، يصف ما يروقه وما يعن له ، وما يثير فى نفسه

---

(١) تقدم شرح هذه الأبيات .
(٢) الديوان رقم ٥٢ .
(٣) السلام : الحجارة . استمرت : أحكمت وقويت . المعجرفة : الغليظة .
(٤) ترضخ : تدق وتكسر . المقاظ : موضع النزول صيفاً .
(٥) صلابا . شديدة قوية . أسر الوسق : شد الحمل . قعص : جمع بعضه إلى بعض . الشظاظ : أحد عودين يشد عليهما العدل .
(٦) مجللة : تعمه وتغطيه . شنارا : عارا . الشواظ : لهب بلا دخان .

لوناً من الانفعال ، وقد يولى هذا الوصف من العناية والإلحاح فى إبراز جوانبه ودقائقه شيئاً كثيراً .

حسان وبعض الشعراء فى الوصف

ولذلك فإنك ترى عند النابغة الجعدى [١] وكعب بن زهير [٢] والحطيئة [٣] ومعن بن أوس [٤] من الوصف المشبع الممتع للناقة والبعير والجواد والظبية والحمار والبقرة الوحشيين ما لا تراه عند حسان .

فمما لا شك فيه أن حسان مع جودة وصفه لناقته بقصيدته اللامية السالفة لم يبلغ منه ما بلغ كعب بن زهير فى قصيدته اللامية المعروفة [٥] ، ولم يستوعب منه ما استوعبه الحطيئة فى مثل قوله [٦] :

وأَدْماءَ حُرْجُوجٍ تَعَالَلْتُ مَوْهِناً ... بِسَوْطِيَ فارْمَدَّتْ نَجَاءَ الخَفَيْدَدِ [٧]

تُلاعِبُ أَثناءَ الزِّمَامِ وتَتَّقِي ... عُلالَةَ مَلْوِيٍّ من القِدِّ مُحْصَدِ [٨]

فإنْ آنَسَتْ حِسًّا من السَّوْطِ عارَضَتْ ... بِيَ القَصْدَ حتى تستقيمَ ضُحا الغَدِ

وإنْ نظرتْ يوماً بِمُؤْخِرِ عَيْنِها ... إلى عَلَمٍ فى الغَوْرِ قالت له ابْعَدِ [٩]

كأَنَّ هُوِيَّ الريحِ بينَ فُرُوجِها ... تَجاوُبَ أَظْآرٍ على رُبَعٍ رَدِي [١٠]

تَرَى بينَ لَحْيَيْها إذا ما تَزَغَّمَتْ ... لُغاماً كَبَيْتِ العنكبوتِ المُمَدَّدِ [١١]

---

(١) انظر الجمهرة ص ٣٠١ .

(٢) الجمهرة ص ٣٠٨ .

(٣) ديوانه ص ١٣ ، ٢٣ ، ٣١ .

(٤) ديوانه ص ١٦ ، ٢١ .

(٥) سيرة ابن هشام ٤/١٤٧ .

(٦) ديوانه ص ٢١ .

(٧) الحرجوج : الناقة الجسيمة الطويلة أو الشديدة أو الضامرة . ارمدت : أسرعت . الخفيدد : الظليم الخفيف .

(٨) القد : سير من جلد غير مدبوغ . محصد : قوى الفتل .

(٩) الغور : المطمئن من الأرض .

(١٠) أظآر : جمع ظئر وهى هنا الناقة المرضع . ربع ردى : ولد لها هالك .

(١١) التزغم : صوت وحنين خفى . اللغام : زبد أفواه الإبل .

وتَرْمِي يداها بالحَصَى خَلْفَ رِجلِها ... وتَرْمِي به الرِّجْلانِ دَابِرةَ اليَدِ
وتَشْرَبُ بالقَعْبِ الصغيرِ وإنْ تُقَدْ ... بِمِشْفَرِها يوماً إلى الرَّحلِ تَنْقَد
وإنْ حُلَّ عنها الرَّحْلُ قارَبَ خَطْوَها ... أَمينُ القُوَى كالدُّمْلُجِ المُتَعَضِّدِ[1]
وإن بَرَكَتْ خوَّتْ على ثَفِنَاتِها ... على قَصَبٍ مِثْلِ اليَرَاعِ المُقَصَّدِ
وإنضُربَتْ بالسَّوْطِ صَرَّتْ بِنَابِها ... صَرِيرَ الصَّيَاصِي فى النَّسِيجِ المُمَدَّدِ[2]
وكادتْ على الأَطْوَاءِ أَطْوَاءِ ضَارِجٍ ... تُسَاقِطُنِى والرَّحْلَ من صَوْتِ هُدْهُدِ[3]
إذا ما ابْتَعَثْنَا من مُنَاخٍ كأَنما ... نَكُفُّ ونَثْنِى مِنْ نَوَاعِمَ أُبَّدِ
وتُضْحِى الجِبالُ الغُبْرُ خَلْفِى كأَنها ... من الآلِ حُفَّتْ بالمُلاَءِ المُعَضَّدِ[4]
ويُمْسِى الغُرابُ الأَعورُ العَيْنِ واقِعاً ... معَ الذئبِ يعْتَسَّانِ نارِى ومِفْأَدِى[5]

وقد أشبه قول حسان :

فإنْ بَرَكَتْ خَوَّتْ على ثَفِنَاتِها ... كأَنَّ على حَيْزُومِها حَرْفُ أَعْبلا

قول الحطيئة :

وإن بَرَكَتْ خَوَّتْ على ثَفِناتِها ... على قَصَبٍ مثلِ اليَراعِ المُقَصَّدِ

كما تواردا على معنى واحد فى الدلالة على نشاط الناقة وشهامتها وحدة فؤادها وتروّعها ، فقال حسان :

مُرَوَّعَةٌ لو خَلْفَها صَرَّ جُنْدُبٌ ... رأَيتَ لها من رَوْعَةِ القَلْبِ أَفْكَلا

وقال الحطيئة فأحسن :

وكادَتْ على الأَطْوَاءِ أَطْوَاءِ ضَارِجٍ ... تُسَاقِطُنِى والرَّحْلَ من صَوْتِ هُدْهُد

---

(١) الدملج والدملوج : ما يلبس فى العضد من الحلى .
(٢) الصياصى : جمع صيصية وهى شوكة النساج .
(٣) الأطواء : الآبار . جمع طوى . ضارج : موضع .
(٤) الآل : السراب أو ما يكون منه فى أول النهار . الملاء المعضد : ما له علم فى موضع العضد .
(٥) عس واعتس : طاف ليلا . والمفأد : موضع النار .

ولا غرابة فى أن يطيل الحطيئة وصف ناقته ويبالغ ، فقد كانت رفيق أسفاره ، وهو دائم الرحلة عليها والانتجاع ، لا ينتهى من سفر إلا إلى سفر .

حسان ومعن بن أوس فى وصف البعير

ومع قلة ما أثر عن العرب فى وصف البعير ، حتى ظن بعض الأدباء أنهم لم يقولوا فيه شيئاً . فإن حسان قد تعرض له وهو يصف قدوم قومه من اليمن مغيرين على المدينة ، وذلك بقوله (١)

فساروا إليهم بأثقالهم على كلِّ فَحْلٍ هِجَانٍ قَطِمْ

ولكنه لم يصل فيه إلى مثل ما وصل إليه معن بن أوس من وصف بعيره بقوله (٢) :

رمى سدَف الظلماء واحتقر السرى بمِرْجَمة أو ذى هِبابٍ مُراجِم (٣)
به لا بِها أَرْمِى الفَلاةَ عن الهوى وأَفْرُجُ غَمَّ المُسْدِفِ المُتَلاَحِم (٤)
بِمُضْطَرِبِ الضَّفْرَيْنِ مُطَّرِدِ القَرا طَويلِ الزِّمَامِ ذى ذِفَرٍّ عُراهِمِ (٥)
ضِبِرٍّ مُضِرٍّ بالنَّواجِى . إذا اشتكى عَجا شِدْقَهُ عن فاطِرِ النَّابِ ناجِم (٦)
مُجِدٍّ يُبارِى أُيْنُقاً جُرِّدتْ له مُبَاعِدَةَ الأَيدى طِوَالَ الخَرَاطِمِ
إذا عزَّها أُمَّ الطريقِ تَوَاهَقَتْ بمُخْتلِفاتِ الرَّجْعِ فوقَ المَنَاسِمِ (٧)

---

(١) الديوان رقم ٩ .

(٢) ديوانه ص ٢٢ .

(٣) السدف : الظلمة . المرجمة : التى ترجم الأرض بأرجلها إذا سارت . الهباب : النشاط . مراجم : مسرع يضرب الأرض بقوائمه ، يقصد البعير .

(٤) أفرج : أكشف . المسدف : الأمر الشديد المظلم .

(٥) الضفران : النسعان واضطرابهما لضمور البطن ، القرا : الظهر . طويل الزمام : كناية عن طول العنق . ذو ذفر : الزفرى العظم الناتئ خلف الأذن . عراهم : عظيم ليس بغليظ .

(٦) الضبر : الشديد الخلق المجتمع . النواجى : النوق السريعة . عجا شدقه : يعجوه عجوا ، فتحه ولواه .

(٧) أم الطريق : وسطه ومعظمه . تواهقت : أسرعت وتبارت فى سيرها . مختلفات الرجع . القوائم المناسم : جمع منسم وهو طرف خف البعير .

حسان لم يعرض للوصف العام إلا تبعاً

كان حسان لا يركز انتباهه فى وصف ما عنى غيره من الشعراء بوصفه ، لأنه كان أشد انتباهاً واهتماماً بوصف الأحداث والمشاهد الإسلامية وما يلابسها . كما أن الفخر وهجاء المشركين ، والتباهى بما للمسلمين من عز ومنعة ، وما هم عليه من تأييد الله وعلو كلمة الإسلام فى نطاق عام شامل ، لم تدع له مجالا للإطالة فى شىء غيرها ، ولذلك ترى أكثر شعره فى الوصف قد جاء فى سياق الفخر أو الهجاء أو الوعيد ، وليس هناك ما يدل على أنه قصد إلى الوصف متأثراً به ، عامداً إليه لذاته . وله فى هذا عذره ، فلو أن كعب بن زهير خاض مع المسلمين ما خاض حسان من غمرات الجهاد ثم قال فيه شعراً ، لشفى نفسه من الفخر والهجاء ، ولأهمه الحديث عن الهجوم والدفاع والهزيمة والنصر . ولشغله وصف ما شاهد من الأحداث الجسام عن أن يقول فى وصف الناقة ما قال ، حين قام بين يدى الرسول الأمين مقامه المشهود .

مثل من قصده إلى ذلك الوصف

ولكننا قد نراه هنا يصف شيئاً ، لأنه أحس حاجة إلى وصفه ، أو التعبير عن أثره فى نفسه . فهو يقول فى وصف رحيله إلى مكة [1] :

رَمَيْتُ بها أهل المَضِيقِ فلم تَكَدْ ... تَخَلَّصُ مِن حَمَّارَةٍ وأَبَاعِرِ [2]

ومَرَّتْ على الأنصارِ وَسْطَ رِحَالِهِمْ ... فقلتُ لهمْ مَنْ صادِرٌ مَعَ صَادِرِ [3]

وطَوَّفْتُ بالبيتِ العَتِيقِ وسَامَحَتْ ... طريقَ كَدَاءٍ فى لُحُوبٍ سَوَائِرِ [4]

ذكرتُ بها التَّعْرِيسَ لمّا بَدَا لَنا ... خِيامٌ بها مِن بَيْنِ بَادٍ وحَاضِرِ [5]

---

(١) الديوان رقم ١٥٦ .

(٢) المضيق : مضيق الصفراء بين مكة والمدينة . الحمارة : الخيل تعدو عدو الحمير . الأباعر : الجمال .

(٣) صادر : مسافر .

(٤) سامحت : لانت وانقادت . كداء : جبل بأعلى مكة . لحوب سوائر : طرق واضحة ممتدة .

(٥) التعريس : النزول بالمكان آخر الليل .

وأَعْرَضَ ذُو دَوْرَانَ تَحْسَبُ أَنهُ مِن الجَدْبِ أَعْناقُ النساءِ الحَوَاسِرِ[1]
فعَجَّتْ وأَلقَتْ للجَبانِ رَحِيلَةً لِأَنْظُرَ ما زَادُ الكريمِ المُسافِرِ[2]

وإن المرء ليجد نفسه مسوقاً إلى الإعجاب بحسن تشبيهه ذلك الجبل فى جدبه وبياضه واستطالته بأعناق النساء الحواسر.

حسان يصف الأحوال النفسية

وهو فى قطعة أخرى يحسن وصف الأحوال النفسية ؛ وما تفعله الضغينة والبغضاء بأصحابها ، كما أحسن من قبل وصف الأشياء الحسية ، وذلك إذ يقول[3]:

وقَوْمٍ من البَغْضاءِ زُورٍ كأَنَّما بأَجْوافِهِمْ مِمَّا تُجِنُّ لنا الجَمْرُ[4]
يجِيشُ بما فيها لَنا الغَلْيُ مِثْلَما تَجِيشُ بما فيها من اللهَبِ القِدْرُ[5]
تَصُدُّ إذا ما واجهتنى خدودُهُمْ لَدَى مَحْفِلٍ عنى كأَنهُمُ صُعْرُ[6]
تُشِيحُ إذا يُثْنَى بِخَيرٍ لَدَيْهِمُ رءوسُهُمُ عنِّى وما بِهِمُ وَقْرُ[7]
وإنْ سَمِعوا سُوءًا بدَا فى وُجُوهِهِمْ لِمَا سَمِعُوا مِمّا يُقالُ لنا البِشْرُ

المدح

قلة مدحه ، موضوعه

قدمنا أن حسان فى جاهليته لم يكن شاعراً مداحاً ، ولم يبلغ ما أثر له من الشعر فى المدح عشرين بيتاً ؛ فلما أسلم ووقف نفسه على الجهاد فى سبيل الله

---

(١) ذو دوران : موضع بين مكة والمدينة . الحواسر : جمع حاسر وهى من كشفت عن شىء منها .
(٢) عجت : صوتت . رحيلة : قوية على السير .
(٣) الديوان رقم ٤٣ .
(٤) زور : جمع أزور وهو من يميل عنك عداوة .
(٥) تجيش : تغلى وتضطرب .
(٦) صعر : جمع أصعر وهو المائل العنق خلقة أو مرضاً أو كبراً .
(٧) تشيح : تميل وتنصرف ، وفى نسخ الديوان المختلفة « تصيخ » أى تستمع والأول أولى . الوقر : ثقل فى السمع .

بشعره ، والدعوة إلى الإسلام والذود عنه باسانه ، كان لابد له من مدح صاحب الرسالة وآله وأصحابه وذوى البلاء الحسن من قادة المسلمين ، وهو لم يتمرس بالمدح إلا قليلا ، ولم يخبر مصادره وموارده فى حياته الجديدة ، فعالجه متكلفاً ، وعرض لذلك فى أربعة عشر موضعاً [١] . ولكن مدحه مع هذا ظل قليلا ، فلم يزد ما مدح به النبي على خمسة وأربعين بيتاً ، كان الصحابة شركاءه فى عشرين منها . وكان يمدحه بالشجاعة والوفاء والعزيمة والمضاء ، والجود والعفة والصدق ، والشرف والنسب ، وما إليها من الفضائل النفسية ، والخلال المحمودة عند العرب ، ويضيف إلى هذا مدحه بالنور والهداية والبركة والتقوى والرسالة والرحمة وغيرها من الفضائل الإسلامية .

من مدحه الرسول

من ذلك قوله مدح الرسول وأصحابه يوم بدر [٢] :

مُسْتَشْعِرِى حَلَقِ المَاذِىِّ يَقْدُمُهُمْ ... جَلْدُ النَّحِيزَةِ ماضٍ غيرُ رِعْدِيدِ [٣]

أَعْنِى الرسولَ فإنَّ اللهَ فَضَّلَهُ ... على البَرِيَّةِ بالتَّقْوَى وبالجُودِ

ماضٍ على الهَوْلِ رَكَّابٌ لما قَطَعُوا ... إذا الكُمَاةُ تَحَامَوْا فى الصَّنَادِيدِ [٤]

وافٍ وماضٍ شِهَابٌ يُسْتَضاءُ بهِ ... بَدْرٌ أَنارَ على كلِّ الأَماجِيدِ [٥]

مُبارَكٌ كضياءِ البَدْرِ صُورَتُهُ ... ما قال كانَ قضاءً غيرَ مَرْدودِ

مُسْتَعْصِمِينَ بحَبْلٍ غيرِ مُنْجَذِمٍ ... مُسْتَحْكِمٍ من حِبالِ اللهِ مَمْدودِ [٦]

---

(١) انظر الجدولين ٢ ، ٤ .

(٢) الديوان رقم ٣٦ .

(٣) مستشعر : لابس شعاراً وهو ما يلامس الجلد من الثياب . الماذى : الحديد من درع ومغفر وسلاح . جلد النحيزة : قوى الطبيعة . الرعديد : الجبان .

(٤) الكماة : جمع كمى وهو لابس السلاح . والشجاع . الصناديد : جمع صنديد وهو السيد الشجاع .

(٥) الأماجيد : الأشراف .

(٦) مستعصمين : متمسكين . منجذم : منقطع . مستحكم : قوى وثيق .

حسان وكعب بن زهير

وبيت حسان :

واف وماض شهاب يستضاء به بدر أنار على كل الأماجيد

يذكرنا بيت كعب بن زهير :

إن الرسول لنور يستضاءُ به مُهَنَّدٌ من سيوف الله مسلول

وهو وإن زاد عليه وصفه بالوفاء فقد أربى عليه بيت كعب بالنص على أنه مهند مسلول ، وأنه فوق ذلك من سيوف الله ، مع جمال لفظه وحسن مبناه ، وخلوه من القول الرّخو مثل : « أنار على كل الأماجيد » .

ومنه قوله فى مدحه صلى الله عليه وسلم [١] :

واللهِ ربِّى لا نُفَارِقُ ماجِدًا عَفَّ الخَلِيقَةِ ماجِدِ الأَجْدَادِ
مُتَكَرِّماً يَدْعو إلى رَبِّ العُلا بَذَلَ النصيحةَ رافعَ الأَعْمَادِ
مِثْلَ الهِلالِ مُبارَكاً ذا رَحْمةٍ سَمْحَ الخَلِيقَةِ طَيِّبَ الأَعوادِ

وقوله [٢] :

وشَقَّ له مِن اسمِهِ كَىْ يُجِلَّهُ فذو العَرْشِ محمودٌ وهذا محمدُ
نبىٌّ أَتانا بَعْدَ يَأْسٍ وفَتْرَةٍ من الرُّسْلِ والأَوْثانُ فى الأَرضِ تُعْبَدُ
فأَمْسَى سِراجاً مُسْتَنِيرًا وهادِياً يَلُوحُ كما لاح الصَّقِيلُ المُهَنَّدُ
وأَنْذَرَنا نارًا وبَشَّرَ جَنَّةً وعَلَّمنا الإسلامَ فاللهَ نَحْمدَ
تَعَالَيْتَ ربَّ الناسِ عن قَوْلِ مَنْ دعا سِواكَ إلٰهاً أَنتَ أَعْلَى وأَمْجَدُ
لَكَ الخَلْقُ والنَّعْماءُ والأَمْرُ كُلُّهُ فإيّاكَ نَسْتَهْدِى وإيّاكَ نَعْبُدُ

---

(١) الديوان رقم ١٥٣ .
(٢) الديوان رقم ١٥٤ .

أخذه من القرآن

وقد أخذ حسان بعض قوله هنا من القرآن ، فقوله « فترة من الرسل » من قوله تعالى : « على فَتْرَةٍ من الرُّسُل » ، وقوله : « سراجاً مستنيراً » من قوله : « وَدَاعِياً إلى الله بإذْنه وسراجاً منيراً » وقوله : « فإياك نستهدى وإياك نعبد » من قوله : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

ويجيب ابن الزبعرى على ما قاله فى بكاء قتلى بدر ، ثم يمدح الرسول قائلا [1] :

وَذَكَرْتَ مِنَّا ماجداً ذا هِمَّةٍ ... سَمْحَ الخَلائِقِ ماجِدَ الإقْدامِ
أَعْنِى النَّبِيَّ أَخا التَّكَرُّمِ والعُلاَ ... وأَبَرَّ مَنْ يُولِى على الأَقْسام [2]
فَلَمِثْلُهُ ولَمِثْلُ ما يَدْعُو لَهُ ... كان المُمَدَّحَ ثَمَّ غيرَ كَهَامِ [3]

حسان وصاحباه أقلوا من مدح الرسول

فإذا نظرنا فى مدح صاحبيه كعب وابن رواحة رأيناهما قد قصراه على الرسول ، ولكننا نرى إلى هذا عجباً ! ، فإن ابن رواحة لم يمدح الرسول إلا ببيت واحد من الشعر [4] ، وأما كعب فمدحه بعشرة أبيات [5] . وكان مدحهما متفقاً مع مدح حسان فى الغاية التى اتجه إليها ، والنعوت التى زخر بها ، وكأنى بهم وقد رأوا فى اتباعهم الرسول وتأييده وتفديته والجهاد فى نشر دعوته والنيل من أعدائه مدحاً عملياً له ، وتزكية فعلية لطريقته . أعلنوا بها أفصح إعلان عما فى نفوسهم من الاعتراف بقدره ، والإشادة بذكره . فاستغنوا بها عما سواها . وأصبح الكلام إلى جانبها لغواً . والقول نافلة .

تخلف شعر حسان فى المدح

والشعر المتقدم ليس على غرار ما ألفنا من شعر حسان جزالة وقوة ، كأن

---

(١) الديوان رقم ٥٧ .
(٢) يولى : يوصى . الأقسام : جمع قسم وهو اليمين ، أو قسم وهو النصيب .
(٣) الكهام : السيف الذى لا يقطع ، ومن الرجال من لا ينفع .
(٤) انظر سيرة ابن هشام ٣/٢٢١ .
(٥) انظر سيرة ابن هشام ٣/١٦ ، ١٧٠ ، ٢٠٩ ، ٢٦٧ ، ٤/١٢١ .

المدح – كما قلنا – تكلف لا يتفق وطبيعته . فهو يؤديه أداء حين يضطر إليه اضطراراً . فإذا اتصل المدح بما يهواه حسان من التعالى والفخر وجدت للمدح فخامة وجلالا . وسمعت له رنيناً عالياً . وأحسست فيه قوة نفس الشاعر ، وانطلاق شاعريته .

متى يرتفع مدحه ؟

وإذا كان قد أجاد مدح الغساسنة فذلك لأن قرابته لهم أنزلت مدحه إياهم منزلة الفخر بهم كما قدمنا . فلما أذل الإسلام العصبية الجاهلية أصبح الرسول وصحبه سادة قومهم من المسلمين . وصار كل مسلم يرى بينه وبينهم نسباً موصولا ، وصار مدحهم فخراً يعود بالكرامة على المسلمين ، ولذلك ارتدى مدح حسان للرسول رداء الفخر به . فكسب بذلك قوة ، ولكنه ظل فى كمه وجودته دون ما كان يتوقع من حسان ، ففى مدح عظماء التاريخ مجال واسع للمادحين ، وإذا كان الممدوح ملكاً لم يبال الشاعر كيف قال فيه ، ولا كيف أطنب ، وذلك محمود وسواه المذموم[1] .

مآخذ على المادحين

فكيف به إذا مدح الرسول العظيم ، وهو فى الغاية التى ليس وراءها غاية ، وفى الذروة التى ليس فوقها ذروة . ومهما يقل فيه فهو صدق ، وهو دون قدره وبعض حقه . ولن يتعرض قائله لمثل ما تعرض له أبو الخطاب عمر بن عامر السعدى حين أنشد الخليفة الهادى شعراً يمدحه به . ويقول فيه :

يا خَيْرَ من عَقَدَتْ كَفَّاهُ حُجْزَتَهُ وخَيرَ مَنْ قَلَّدَتْهُ أَمْرَها مُضَرُ

فقال له الهادى . إلاّ من يا بائس ؟ فقال واصلا كلامه ولم يقطعه :

إلا النبيَّ رسولَ اللهِ إن له فخرًا ، وأَنت بهذا الفخرِ تفتخر

ولذلك أنكروا على الكميت بن زيد قوله فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) العمدة ٢/١٠٣ .

وقيل أَفْرَطْتَ ، بل قَصَدْتُ ، ولو عَنَّفَنِي القائلون أَو ثَلَبُوا
إليكَ يا خيرَ من تَضَمَّنَتْ الْـ أَرْضُ ، ولو عاب قَوْلِيَ العُيُبُ
لَجَّ بتَفْضِيلكَ اللسانُ ، ولو أَكْثِرَ فيكَ الضِّجَاجُ والصَّخَبُ

فأخذوه بقوله ، وعابوه عليه ، وقالوا: من ذا الذى يقول له فى مدح النبى أفرطت ، أو يعنفه أو يثلبه ، أو يعيبه ، حتى يكثر عليه فيه الضجاج والصخب[1] !

من أسباب تقصير حسان

وربما كان تقصير حسان راجعاً فى بعضه إلى أنه ارتقى بمدح الرسول مرتقى صعباً. فتوفية الرسول حقه من الثناء أمر فوق الطاقة ، فاستشعر لذلك الهيبة ، وعرف من نفسه القصور عن بلوغ قمة ذلك الأشم الشاهق .

وربما كان راجعاً فى بعض آخر لأن المقام مقام دينى قدسى إلهى ، ولا يتوقع من مسلم يمدح رسول الله غير مدح هو أدنى إلى أن يكون حمداً وضراعة ودعاء ، وإشادة بفَعال نبى مرسل من عند الله . كما فعل شوقى بقوله :

ما جئتُ بَابَكَ مادِحاً بل داعِياً ومن المَدِيحِ تَضَرُّعٌ ودُعَاءُ

لا أن يكون شعراً فلسفيًّا عميقاً ، أو نعتاً تحليليًّا مفصلا ، كما يفعل القائلون فى جانب العظماء من البشر .

ولكننا لا نستطيع أن نقول إن ذلك يرجع إلى ضعف شعوره بجلال ذات الرسول ، أو قلة تأثره بالروح الإسلامية واندماجه فيها ، فإن حسان كان من أشد الناس إحساساً بعلو قدر الرسول ، وأكثرهم تمتعاً بحياطته ، وفى غضبه لما أصاب العامة من المسلمين ، وبكائه قتلاهم ، ومقذع هجائه لأعدائهم ما ينفى شبهة كهذه لا ينهض عليها دليل واحد .

---

(١) العمدة ٢/١١٤ .

والواقع أن فضائل الرسول ومحامده تتقاصر عنها همم المادحين . وقد عجز وسيعجز عن توفيتها حقها حسان وغيره من القائلين . ولو أن مدائح حسان هذه قيلت فى ممدوح آخر من سائر الناس فسمعناها لربما اختلف حكمنا عليها ، وتغير رأينا فيها وموقفنا منها.

من جيد مدحه . موازنة ونقد

أسلفنا أن مدح حسان لم يكن ليرتفع إلى مستوى فخره إلا حين يخلط ذلك المدح بالفخر . فانظر إلى قوله يمدح السادة من مهاجرى قريش ومن الأنصار[1]:

إنَّ الذَّوائبَ من فِهْرٍ وإخْوَتِهِمْ ... قد بَيَّنُوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ

قومٌ إذا حارَبُوا ضَرُّوا عدوَّهُمُ ... أو حاولوا النَّفْعَ فى أشْياعِهِمْ نَفَعُوا

لا يَرْقَعُ الناسُ ما أوْهَتْ أكُفُّهُمُ ... عندَ الدِّفاعِ ولا يُوهُونَ ما رَقَعُوا

إنْ كان فى الناس سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ ... فكلُّ سَبْقٍ لأَدْنَى سَبْقِهِم تَبَعُ

تره يتحدث عن قوم هو منهم . وتجد المدح والفخر فى قوله يتشابهان ويختلطان ، وتجد بقوله فخامة وجزالة ، إلى ما فيه من حسن ، وما له من وقع .

حسان وأبو نواس وكعب بن مالك . موازنة ونقد

ومهما يكن مراد حسان بقوله : « رسول الله شيعتهم » من أنه مُعينهم وناصرهم فهو قول معيب ، منحرف عن السنن الذى يجب أن ينتهجه الشاعر الحصيف من اختيار أليق الألفاظ لمواضعها التى تتطلع إليها . فهؤلاء القوم شيعة الرسول ، وليس الرسول شيعتهم[2].

وقد وقع بعده فى هذا الخطأ أبو نواس بقوله :

كَيْفَ لا يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ ... مَنْ رسولُ اللهِ من نَفَرِهْ

والخطأ من كل إنسان خطأ على أى حال .

---

(١) الديوان رقم ٢٣ ، وسيرة ابن هشام ٤/٢١٠ .

(٢) وفى القاموس المحيط : شيعة الرجل أتباعه وأنصاره .

وما أحسن قول كعب بن مالك فى مثل هذا المعنى [١] :

وفِينَا رسولُ اللهِ والأَوْسُ حَوْلَهُ له مَعْقِلٌ منهمْ عَزِيزٌ وناصِرُ
وجَمْعُ بَنِى النَّجَّارِ تحتَ لوَائِهِ يُمَشُّون فى المَاذِىِّ والنَّقْعُ ثَائِرُ [٢]

المتنبى يتابع حسان

وقد جاء أبو الطيب فرأى قول حسان :

لا يَرْقَعُ النَّاسُ ما أَوْهَتْ أَكُفُّهُمْ عندَ الدِّفَاعِ ، ولا يُوهُونَ ما رَقَعُوا

فاقتفى أثره فقال :

فلا تَرْتَقُ الأَيامُ ما أَنتَ فاتِقٌ ولا تَفْتَقُ الأَيامُ ما أَنتَ راتِقُ

روح الإسلام وسماحته فى مدح حسان

والناظر فى هذه القصيدة يرى فارقاً بين الروح الإسلامية السمحة ، التى تتبدى فى قول حسان :

إن الذَّوَائِبَ من فِهْرٍ وإِخْوَتِهِمْ قد بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَع

وبين روح البداوة الجاهلية فى قول شاعر وفد تميم [٣] :

نحنُ المُلوكُ فلا حَيٌّ يُعَادِلُنا منا المُلوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ البِيَعُ

ثم استمع إلى قوله ينفى ابن الزبعرى عن الانتساب إلى بنى قصى ، ويمدحهم [٤] :

فلا تَفْخَرْ فإنَّ بَنِى قُصَىٍّ همُ الرَّأْسُ المُقَدَّمُ والسَّنَامُ
وأَهلُ الصِّيتِ والسَّوْراتِ قِدْماً مُقَدَّمُها إذا نُسِبَ الكِرَامُ [٥]

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/١٥ .
(٢) الماذى : الدروع البيض اللينة ، النقع : الغبار .
(٣) انظر سيرة ابن هشام ٤/٢٠٨ .
(٤) الديوان رقم ١٧٤ .
(٥) الصيت : الذكر الحسن . السورات : جمع سورة وهى من المجد أثره وارتفاعه ومن السلطان سطوته .

هُمُ أَعْطَوْا مَنازِلَها قُرَيشًا بمكةَ وَهْيَ ليس لها نِظَامُ

وقوله فى مدح عبد الله بن عباس [١] :

إِذَا قال لَمْ يترُكْ مقالاً لقائلٍ بِمُلْتَقَطاتٍ لا تَرَى بينها فصلاَ[٢]
كفى وشفى ما فى النفوس فلم يَدَعْ لِذِى إِرْبَةٍ فى القول جِدًّا ولا هَزْلاَ[٣]
سَمَوْتَ إلى العَلْيا بغَيْرِ مَشَقَّةٍ فنِلْتَ ذُراها لا دَنِيًّا ولا وَغْلاَ[٤]

ومن قوله فى مدح بنى هاشم آل الرسول [٥] :

فما زال فى الإسلامِ مِنْ آلِ هاشمٍ دَعائِمُ عِزٍّ لا يَزُولُ ومَفْخَرُ
هُمُ جَبَلُ الإسلامِ ، والناسُ حَوْلَهُ رِضَامٌ إلى طَوْدٍ يَرُوقُ وَيَقْهَرُ[٦]
بِهِمْ تُكْشَفُ اللَّأْواءُ فى كلِّ مأْزِقٍ عَمَاسٍ إذا ما ضاقَ بالقَوْمِ مَصْدَرُ[٧]
هُمُ أَولياءُ اللهِ ، أَنْزَلَ حُكْمَهُ عليهم ، وَفِيهِمْ ذَا الكتابُ المُطَهَّرُ
بَهَالِيلُ منهمْ جَعْفَرٌ ، وابنُ أُمِّهِ عَلِيٌّ ، ومنهمْ أَحمدُ المُتَخَيَّرُ[٨]
وحمزةُ والعباسُ منهمْ ، ومنهمُ عَقِيلٌ ، وماءُ العُودِ مِنْ حَيْثُ يُعْصَرُ

وفى هذا القول دليل آخر على الروح الإسلامية السمحة التى تحلى بها حسان ، وعلى عمق شعوره بعلو قدر الرسول وآله .

بعض معاصريه والروح الإسلامية

وهناك جماعة من الشعراء مدح بعضهم الرسول فى شعر قليل . كالأعشى

---

(١) الديوان رقم ١٧٠ .
(٢) ملتقطات : متخيرات .
(٣) الإربة : الحاجة .
(٤) الوغل : النذل الضعيف الساقط .
(٥) الديوان رقم ٢١ .
(٦) الرضام : الصخور العظيمة .
(٧) اللأواء : الشدة . المأزق : المضيق . عماس : شديد مظلم .
(٨) بهاليل : جمع بهلول وهو الضحاك والسيد الجامع لكل خير .

مَيْمُون ، والنابغة الجَعْدِى ، وكَعْب بن زُهَير . وقلة شعرهم فى المدح راجعة إلى أن الروح الإسلامية لم تسيطر عليهم ، فالأعشى لم يسلم ، والنابغة وكعب وإن أسلما فقد ظلت روحهما جاهلية . ولذلك كان مدحُ الأعشى المُحَلَّقَ الكِلابِىّ — وهو أحد صعاليك العرب — حين نحر له وأكرم مثواه أوفى وأجودَ من الأبيات التى مدح بها الرسول ، حين خطرت له خاطرة حسّنت له الإسلام ، ثم لم تلبث أن تبددت . وذلك بأنه ألف الحياة الجاهلية ، وعرف كيف يحسن الكلام فيها . ويجيد المدح بفضائلها ، ولكنه لم يخالط الحياة الإسلامية ولم تخالطه ، ولم يتذوق حلاوتها ، وتتكشف له أسرار حسنها وبهجتها ، وتنطبع فى نفسه صور فضائلها ، فتجرى على لسانه آيات مدحها ، ويعذب فى لهاته ترديد الثناء عليها . استمع إلى قوله يمدح المُحَلَّق[1] :

نَفَى الذَّمَّ عن آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ ... كجَابِيَةِ الشَّيْخِ العِرَاقِىِّ تَفْهَقُ[2]

لَعَمْرِى لقد لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضَوْءِ نارٍ باليَفَاعِ تَحَرَّقُ[3]

تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيانِها ... وبات على النار النَّدَى والمُحَلَّقُ

رَضِيعَىْ لِبَانٍ ثَدْىَ أُمٍّ تَقَاسَما ... بأَسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرَّقُ[4]

تَرَى الجُودَ يجْرِى ظاهراً فَوْقَ وَجْهِهِ ... كما زانَ مَتْنَ الهُنْدُوَانِىِّ رَوْنَقُ[5]

يدَاهُ يَدَا صِدْقٍ ، فَكَفٌّ مُبِيدَةٌ ... وكَفٌّ إذا ما ضُنَّ بالمالِ تُنْفِقُ

ثم استمع إلى قوله فى مدح الرسول[6] :

متَى ما تُنَاخِى عندَ بابِ ابنِ هاشِمٍ ... تُرَاحِى وتَلْقَىْ من فَوَاضِلِهِ نَدَى

---

(١) العمدة ١ / ٢٤ .

(٢) الجلفة : القصعة الكبيرة . الجابية : الحوض الذى يجمع فيه الماء للإبل . تفهق : تمتلىء .

(٣) اليفاع : التل والمكان المرتفع .

(٤) أسحم داج : ليل شديد السواد . . عوض لا نتفرق أى لا نتفرق أبداً : والمراد أنهما تحالفا فى ليل شديد السواد ألا يتفرقا أبد الدهر .

(٥) الهندوانى : السيف .

(٦) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٦ .

نَبِيٌّ يرَى مالا تَرَوْنَ ، وذِكْرُهُ أَغَارَ لَعَمْرِى فى البلاد وأَنْجَدَا[1]
له صَدَقاتٌ ما تُغِبُّ ونائِلٌ وليس عَطاءُ اليومِ مانِعَهُ غَدَا[2]
أَجِدَّكَ لم تَسْمَعْ وَصاةَ محمدٍ نَبِيِّ الإلٰهِ حيثُ أَوْصَى وأَشْهَدَا
إذَا أَنْتَ لم تَرْحَلْ بزادٍ من التُّقَى ولا قَيْتَ بعدَ الموتِ مَنْ قد تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ على أَلا تكونَ كَمِثْلِهِ فتُرْصِدَ للأَمرِ الذى كان أَرْصَدَا[3]

وكذلك النابغة الجعدى ، فقد أنشد رسول الله قصيدة طويلة ، مدحه فيها ببيت واحد من الشعر ، فقال [4] :

أَتَيْتُ رسولَ اللهِ إذْ جاءَ بالهُدَى ويَتْلُو كِتاباً كالمَجَرَّةِ نَيِّرَا

بعد أن أحاطه بإطار من صور الحياة الجاهلية تحدق به ، ولم يتورع فيها عن الفخر بمعاقرة الخمر .

وكان كعب جاهلياً مثله ، فقد وفد على الرسول خاشعاً خائفاً مستغفراً مستجيراً . بعد أن أهدر دمه ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وكان هذا أدعى للإجادة فى مدحه ، والإشادة بمناقبه . والإتيان فى ذلك بما لم يأت به غيره ، ولكنه لم يكن فى هذا الميدان مجلياً ، وهو وإن أحسن القول عامة فإنه لم يستطع أن يتخلى عن منهجه ، فصرف جهده إلى وصف ناقته ، وإلى بيان مدى خوفه وتهيبه الرسول ، فى تصوير بدوى ، يشبهه فيه بأسد خادر مرهوب ، ولم يوفق حتى إلى تشبيهه فى عموم نقمته بالليل إذا يغشى ، كما فعل من قبله النابغة فى الاعتذار إلى النعمان بقوله :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلتُ أن المُنْتَأَى عنك واسع

ثم قال بعد ذلك بيته المشهور :

إنَّ الرسولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بهِ مُهَنَّدٌ من سُيوفِ اللهِ مَسْلُولُ

---

(١) أغار : بلغ الغور وهو ما انخفض من الأرض . أنجد : بلغ النجد ، وهو ما ارتفع منها .
(٢) تغب : تتخلف وتنقطع . والنائل : العطاء .
(٣) أرصد : أعد .
(٤) جمهرة أشعار العرب ص ٣٠١ ، وفى الأغانى ٤/١٢٩ ثلاثة أبيات .

ولكنهم قد أجمعوا على تقديم قوله فى مدحه صلى الله عليه وسلم [١]:

تَحْمِلُهُ الناقةُ الأَدْماءُ مُعْتَجِرًا بالبُرْدِ كالبَدْرِ جَلَّى ليلةَ الظُّلَمِ

وفى عِطَافَيْهِ أَو أَثناءِ رَيْطَتِهِ ما يعلمُ اللهُ من دِينٍ ومن كَرَمِ

وذلك لأنه أضاف إلى مدحه بالفضائل النفسية والإسلامية مدحه بالفضائل العرضية والجسمية ، وكان فى التعميم والإطلاق والتهويل بإضافة ما عنده من دين ومن كرم إلى علم الله ، والإشارة بذلك إلى أن حصره شىء فوق طاقة البشر — مدح بالغ لا يغنى غناءه قول وإن طال .

أثر الإسلام فى مدح حسان منهجاً وأسلوباً . موازنات

كان حسان بلا شك أكثر أولئك الشعراء تأثراً بالإسلام ، وأشدهم فيه اندماجاً ؛ فتأثر بذلك منهجه وأسلوبه ، فما كان يرى فى الرسول إلا إمام المسلمين ورائدهم وأمينهم وهاديهم ، لم تختلط فى نظره الرسالة بالملك ، ولم ير فى خلفائه من بعده إلا بعض ما كان يراه فيه .

ولكن الحطيئة لم يتأثر بالإسلام ، ولم تخالط روحه روحه ؛ فكان ينظر إليهم نظر الأعاجم إلى ملوكهم ، وينعتهم بنعوتهم ، ويرى فى الخلافة ملكاً ؛ استمع إلى قوله فى عمر بن الخطاب [٢] :

وليلٍ تَخَطَّيْتُ أَهْوالَهُ إلى عُمَرٍ أَرْتَجِيهِ ثِمَالاَ [٣]

إلى مَلِكٍ عادلٍ حُكْمُهُ فلما وضَعْنَا إليه الرِّحَالاَ

صَرَا قَوْلَ مَنْ كان ذا إِحْنَةٍ ومَنْ كان يَأْمُلُ فِىَّ الضَّلاَلاَ [٤]

وإلى قوله يخاطبه [٥]:

---

(١) العمدة ٢/١٠٨ .

(٢) ديوانه ص ٣٣ .

(٣) ثمالا : غوثا .

(٤) صرا : أبطل . الإحنة : العداوة .

(٥) ديوانه ص ١٠٨ .

يأيُّها المَلِكُ الذى أَمْسَتْ لهُ بُصْرَى وغَزَّةُ سَهْلُهَا والأَجْرَعُ[1]
ومليكُها وقَسِيمُها عن أَمْرِهِ يُعْطِى بأَمرِكَ ما تَشاءُ وَيَمْنَعُ
أَشكو إليكَ ، فأَشْتَكِى ذُرِّيَّةً لا يَشْبَعُونَ . وأُمُّهُمْ لا تَشْبَعُ

وكذلك تحلى حسان بالخلق الإسلامى ، ونهج فى مدحه منهجاً إسلامياً ، فخص بمدحه الرسول وأصحابه وذوى البلاء الحسن من أبطال الإسلام . أما الخطيئة فكان عمله النجعة ، يمدح من يرجو عطاءه ومن يحسن إليه ، ويهجو من يبطئ عليه سيبه أو يمسك عنه رفده ، وكان الاستجداء بالشعر عنده أمراً لا يجد غضاضة فى إعلانه ، ولا يعرف فيه حياء أو مواربة ، وكان يكيل المدح للناس بقدر ، فلا يعطيهم من مدحه إلا بمقدار ما يأخذ من برهم ، ومثله فى هذا جرير ، يجلو لك هذا الخلق منه قوله فى قُتَيْبَة بن النَّهَّاس العِجْلِىّ[2] :

سُئِلْتَ فلم تَبْخَلْ ، ولم تُعْطِ طائلاً فسِيَّانِ . لا ذَمٌّ عليكَ ولا حَمْدُ
وأَنتَ امْرُؤٌ لا الجُودُ منكَ سَجِيَّةٌ فتُعْطِى ، وقد يُعْدِى على النَّائِلِ الوُجْدُ[3]

وقوله فى الوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيْط[4] :

وإنِّى لأَرجوهُ وإنْ كان نائياً رجاءَ الرَّبيعِ أَنْبَتَ البَقْلَ وَابِلُهْ
لِزُغْبٍ كأَوْلادِ القَطَا رَاثَ خَلْفُها على عاجِزَاتِ النَّهْضِ حُمْرٍ حواصلُه[5]

وقوله فى مدح بَغِيضِ بن شَمَّاس[6] :

لقد تَدَارَكَنِى منهُ ولا حَمَنِى سَيْبٌ كَسَا أَعْظُماً قد لاحَ عَارِيها[7]

---

(١) بصرى : من مدن الشام قرب دمشق . غزة : من مدن الأردن . الأجرع : ما استوى من الرمل مع ارتفاع .
(٢) ديوانه ص ٩١ .
(٣) يعدى : يعين . الوجد : السعة واليسار .
(٤) ديوانه ص ٣٩ .
(٥) زغب : صغار . راث خلفها : بالفاء أى أبطأ استقاؤها الماء على أولادها العاجزة عن النهوض ، والخلف : المستقى ، فالجملة حال من القطا . وبالقاف أى أبطأ شبابها لسوء غذائها فهى عاجزة عن النهوض فالجملة حال من أولاد القطا .
(٦) ديوانه ص ١١٢ .
(٧) لاحمنى : كسانى لحماً ، سيب : عطاء .

فلْيَجْزِهِ اللهُ خَيْرًا مِنْ أَخى ثِقَــةٍ وَلْيَهْدِهِ بِهُدَى الخَيْرَاتِ هَادِيها
والمُخْلِفُ الأَلْفَ بعدَ الأَلْفِ يُتْلِفُها والواهبُ المائةَ المَعْكَى وَراعِيها[1]

فإذا جاوز حسان الرسول وصحبه ضمن بمدحه على غيرهم ، وادخر النعوت الجليلة فجعلها فى قومه فخراً بهم ، فإذا قال معن بن أوس فى مدح سعيد بن العاص[2] :

إليكَ سَعِيدَ الخَيْرِ حَابَتْ مَطِيَّتِى فُرُوجَ الفَيَافِى وهْىَ عَوْجَاءُ عَيْهَلُ[3]
فما بَلَغَتْ كَفُّ امْرِئٍ مُتَنَاوِلاً من المجدِ إلاَّ والذى نِلْتَ أَطْوَلُ
ولا بَلَغَ المُهْدُونَ نَحْوَكَ مِدْحَــةً ولو صَدَقوا إلا الذى فيكَ أَفْضَلُ

ذكرك شعره هذا بمثله أو بما هو أفخم منه ، مما قاله حسان فى الفخر بقومه والتنويه بمآثرهم .

الرثاء

رثاء حسان كله متأثر بدواعى الرابطة الإسلامية

لم يكن لحسان فى جاهليته رثاء إلا بكاءه دولة غسان فى شخص عمرو بن الحارث وابن أخيه حُجْر حين رثاهما ، ولكن رثاءه الإسلامى بلغ ثمانياً وعشرين قطعة من شعره[4] ، والعجيب أن الظاهرة التى أشرنا إليها من قبل ، وهى أنه لم يرث فى جاهليته أحداً من قبيلته أو ذوى قرابته بقيت تلازمه فى إسلامه ، فلم يرث أحداً إلا بداعى الأخوة الدينية والرابطة الإسلامية ، إلا بنتاً له بكاها بأبيات قليلة[5] ، فله أربع مراث فى الرسول ، وواحدة فى عمر بن الخطاب ، وثمان فى عثمان ،

---

(١) المعكى : العظيمة المسنة من الإبل للجمع والمفرد بلفظ واحد .

(٢) ديوانه ص ١٠ .

(٣) فروج الفيافى : مخارج الصحارى والمفرد فيفاء . العوجاء : الناقة تعوج فى سيرها وتعترض من نشاطها . العيهل : العظيمة السريعة .

(٤) منها اثنتان وردتا بسيرة ابن هشام ومطبوعى الرحمانية والسعادة ، وقد رجحنا صحة نسبتهما إلى حسان . انظر الجدولين رقم ٢ ، ٤ .

(٥) الديوان رقم ١١٢ .

وخمس فى قتلى الرجيع ، وثلاث فى قتلى مؤتة ، واثنتان فى قتلى بئر معونة ، واثنتان فى حمزة ، وواحدة فى بعض شهداء بدر ، وواحدة فى المطعم بن عدى .

مراثيه فى الرسول لم تخل مما يشوبها

قال حسان يرثى النبى صلى الله عليه وسلم[1] :

بطَيْبَةَ رَسْمٌ للرسولِ ، ومَعْهَدُ ... مُنيرٌ ، وقد تَعْفُو الرُّسُومُ وتَهْمَدُ[2]
ولا تَنْمَحِى الآياتُ من دارِ حُرْمَةٍ ... بها مِنْبَرُ الهادى الذى كان يَصْعَدُ
وواضحُ آياتٍ وباقى مَعَالِمٍ ... ورَبْعٌ له فيه مُصَلًّى ومَسْجِدُ[3]
بها حُجُراتٌ كان يَنْزِلُ وَسْطَها ... من اللهِ نورٌ يُسْتَضَاءُ ويُوقَدُ
مَعَالِمُ لم تُطْمَسْ على العَهْدِ آيُها ... أَتاها البلى فالآىُ منها تَجَدَّدُ
عَرَفتُ بها رَسْمَ الرسولِ وعَهْدَهُ ... وقَبرًا به واراهُ فى التُّرْبِ مُلحِدُ[4]
لقد غَيَّبُوا حلماً وعلماً ورحمةً ... عَشيةَ عَلَّوْهُ الثرى لا يُوَسَّدُ

إلى أن يقول :

عزيزٌ عليه أَنْ يَجُورُوا عن الهُدَى ... حريصٌ على أَنْ يَسْتَقيموا ويَهْتَدُوا
عطُوفٌ عليهمْ ، لا يُثَنِّى جَنَاحَهُ ... إلى كَنَفٍ ، يَحْنُو عليهمْ ويَمْهَدُ[5]

ثم يقول :

وما فَقَدَ الماضُونَ مِثْلَ محمدٍ ... ولا مِثْلُهُ حتى القيامةِ يُفْقَدُ
أَعَفَّ وأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّــةٍ ... وأَقربَ منه نائلاً لا يُنَكَّدُ[6]
وأَبْذَلَ منه للطَّرِيفِ وتَالِدٍ ... إذا ضَنَّ مِعْطاءٌ بما كان يُتْلِدُ[7]

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٣١٧ ، وشرح البرقوقى ص ٨٩ .
(٢) تهمد : تبلى .
(٣) المعالم : جمع معلم وهو ما يعرف به الشىء .
(٤) الملحد : من يدفن الميت .
(٥) كنف : جانب وناحية . يمهد : يوطئ ويسهل .
(٦) النائل : العطاء ، ينكد : لا يهنأ به من يعطاه .
(٧) يتلد : يحفظ عنده من قديم .

وأَكْرَمَ حَيًّا فى البُيُوتِ إذا انْتَمى وأكرمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسَوَّدُ[1]

وهذه القصيدة خير ما رثى حسان به الرسول . فى تعبيرها عن صدق العاطفة والأسى العاصف العميق ، ولكنها لم تخل مما يشوبها من ضعف بعض عباراتها ، أو قلق بعض معانيها . أو انقطاع النفس الشعرى دون الغاية المرجوة منها ، من ذلك قوله : منبر الهادى : « الذى كان يصعد » وقوله : « واراه فى الترب ماحد » وقوله : « عَلَّوْه الثرى لا يوسد » . وربما كان لهول الفجيعة التى حاقت بحسان لفقد الرسول ، وعظم الخطب فى ذاته ، إلى ما قدمنا عند الكلام على وفاة الرسول[2] دخل فى هذا .

كعب بن مالك لم يرث الرسول

بل لقد كان من الجائز أن يقحمه الخطب الجلل ، وأن يسكته كما أسكت كعب بن مالك . الذى لم نقف على شعر له فى رثاء الرسول . وحسان نفسه يعترف بعجزه عن النهوض بحق الرسول إذ يقول « فنفسى تبلد » .

الكميت يقتفى أثر حسان

وقد نظر الكميت إلى بيتى حسان :

فبوركتَ يا قبر الرسول، وبوركتْ بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد

لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة عشية عَلَّوْه الثرى لا يوسد

وأخذ معناهما فقال :

فبورك قبر أنت فيه . وبوركتْ به وله أهلٌ بذلك يَثْرِبُ

لقد غَيَّبُوا بِرًّا وحَزْماً ونائلاً عشيةَ واراهُ الصَّفِيحُ المُنَصَّبُ[3]

---

(١) أبطحى : نسبة إلى الأبطح بمكة وينزله أكرم قريش .

(٢) انظر ص ٢٠٦ من هذا الكتاب .

(٣) الصفيح : الحجارة . المنصب : المقام .

وقد عيب الكميت بقوله هذا [١]، لأنه رثى الرسول بما هو دون قدره ، فالبر والحزم والنائل ليست كل محامده ، وليست جماع الفضائل النبوية التى يصح أن تمثل شخصه . أو توضع بإزائه ، أو التى سيفقدها الناس وحدها بفقده .

حسان وبعض الشعراء فى الرثاء

وكذلك كان الكميت كحسان، لم يبلغ كلامهما فى رثاء الرسول ما كان ينتظر ، ولم يبلغ أحد منهما فى قوله السالف ما بلغه الحسين بن مطير بقوله فى رثاء معن بن زائدة[٢] :

فيا قَبْرَ مَعْنٍ أنت أوّلُ حُفْرَةٍ ... من الأَرضِ خُطَّتْ للسماحةِ مَوْضِعَا
ويا قبرَ معنٍ كيف وَاريْتَ جُودَهُ ... وقد كان منه البَرُّ والبحرُ مُتْرَعَا
فتًى عِيشَ فى مَعْروفِهِ بعدَ مَوْتِهِ ... كما كان بعدَ السَّيْلِ مَجْراه مَرْتَعَا
ولما مضى مَعْنٌ مضى الجودُ فانْقَضَى ... وأصبح عِرْنِينُ المَكارِمِ أَجْدَعَا

ولم يحسن أحدهما أن يقول قول متمّم بن نُوَيْرَة فى رثاء أخيه مالك[٣] :

لقد لاَمَنِى عندَ القُبورِ على البُكا ... رَفِيقِى لِتَذْرَافِ الدموعِ السَّوافِكِ
فقال : أَتَبْكِى كُلَّ قبرٍ رأيتَهُ ... لقَبْرٍ ثَوَى بينَ اللِّوَا فالدَّكَادِكِ
فقلتُ له : إن الشَّجَى يَبْعَثُ الشَّجَى ... فَدَعْنِى ، فهذا كلُّهُ قبرُ مَالِكِ

ولا قول مسلم بن الوليد [٤] :

أَرادوا لِيُخْفُوا قَبْرَه عن عدوِّهِ ... فَطِيبُ ترابِ القبرِ دَلَّ على القَبْرِ

وأخذ حسان قوله :

عزيزٌ عليه أَنْ يَجُورُوا عن الهُدَى ... حَرِيصٌ على أَن يَسْتَقِيمُوا ويَهْتَدُوا
عَطُوفٌ عليهمْ ، لا يُثَنِّى جَنَاحَهُ ... إلى كَنَفٍ ، يَحْنُو عليهمْ ويَمْهَدُ

---

(١) العمدة ٢/١٢٢ .
(٢) ديوان الحماسة ٢/٢٧٩ .
(٣) ديوان الحماسة ٢/٢٣٧ .
(٤) ديوانه .

من قوله تعالى: « عَزِيزٌ عَلَيهِ ما عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عليكُمْ بالمؤمنِينَ رَءُوفٌ رَحِيم »

رثاء آخر للرسول

ويرثيه بقصيدة أخرى مطلعها[1] :

آلَيْتُ حِلْفَةَ بَرٍّ غيرِ ذى دَخَـلٍ ... منى أَلِيَّةَ بَرٍّ غيرَ إفْنَـادِ[2]

فيقول :

خيرَ البَرِيَّةِ إنى كنت فى نَهَرٍ ... جارٍ فأَصبحتُ مِثْلَ المُفْرِدِ الصَّادِى

أَمسى نساؤُك عَطَّلْنَ البُيوتَ ، فما ... يَضْربن فَوْقَ قَفَا سِتْرٍ بأَوْتَادِ

مِثْلَ الرَّوَاهِبِ يَلْبَسْن المُسُوحَ وقد ... أَيْقَنَّ بالبؤس بعدَ النِّعْمَةِ البادِى[3]

بقايا صور الشام فى رثائه

وذلك تصوير لما يحسه بموت الرسول من فقد المسعف المعين ، وانقطاع ذلك البر الموصول ، وكأنه رزئ من موته بمصاب خاص فوق مصاب عامة المسلمين ، ثم انظر إلى تصويره نساء الرسول فى حزنهن ، فقد مثلهن فى صورة الرواهب يلبسن المسوح ، وهى صورة من بقايا صور الشام وعهوده ، ما زالت تراود خياله وتتراءى له.

بكاؤه نفسه وقومه فى رثاء الرسول

ثم يعود فيذكر سوء مآله ، وحال بنى النجار بعد موت الرسول ، ويندب ما كان يلقاه فى ظله من عيش رغد ، ولقاء سمح ، وصفح كريم ، حتى ليتمنى أن لو كان الله قد أخذهم معه ، ولم يترك أحداً منهم بعده . فيقول[4]:

نَبِّ المساكينَ أَنَّ الخيرَ فارقَهُمْ ... معَ النبىِّ تولَّى عنهُمُ سَحَرَا

---

(١) الديوان رقم ١٣٤ .

(٢) الدخل : الفساد . ألية : يمين . إفناد : كذب .

(٣) تقدم شرح هذه الأبيات .

(٤) سيرة ابن هشام ٤/٣٢٠ .

مَنْ ذا الذى عندَهُ رَحْلِى وراحِلَتِى ... ورزقُ أَهلِى إذا لم يُؤْنِسُوا المَطَرَا[1]

أَم من نُعاتِبُ لا نَخْشَى جَنادِعَهُ ... إذا اللسانُ عَتَا فى القولِ أَو عَثَرَا[2]

فليتنا يَوْمَ وَارَوْهُ بمَلْحَدِهِ ... وغَيَّبُوهُ وأَلْقَوْا فوقَه المَدَرَا[3]

لم يَتْرُكِ اللهُ منا بَعْدَهُ أَحَدًا ... ولم يُعِشْ بعدَهُ أنثى ولا ذَكَرَا

ذَلَّتْ رِقابُ بَنِى النجَّارِ كلِّهِمُ ... وكان أَمرًا من امرِ اللهِ قد قُدِرَا

وهو قول إن أبان عما لدى حسان من حزن واوعة وهواجس فقد قصر عن أن يبرز ذلك فى ثوب يليق به من الكلام المحبَّر والأساوب الجميل واللفظ الرائق ، فالذوق لا يستسيغ والقلب لا يرضى واللسان لا يطيع أن يقول عن الحبيب المفدى « ألقوا فوقه المدرا » ، مع أن هذا القول قد صار فضلا من الكلام لا حاجة إليه بعد قوله : « واروه بملحده وغيّبوه » ، فكان كمن انتقل إلى العنف والغلظة والقسوة على المحبوب بعد الترفق والعطف والملاينة ، وقوله : « ولم يُعِشْ بعده أنثى ولا ذكرا » أشبه بالكلام العامى ، وقوله : « وكان أمراً من أمر الله قد قدرا » ضعيف ، فضلا عما لحقه بوصل همزة « امر الله » .

رثاؤه حمزة

ويقول فى رثاء حمزة بن عبد المطلب شهيد أحد[4] :

هلْ تَعْرِفُ الدارَ عفا رسمَها ... بعدَكَ ثوبُ المُسْبِلِ الهاطِلِ[5]

بينَ السَّرَادِيحِ فأُدْمانَةٍ ... فمَدْفَعِ الرَّوْحاءِ فى حائِلِ[6]

---

(١) الرحل : مركب الراحلة وما يصحبه المسافر من متاع فى سفره . الراحلة : البعير أو الناقة . يؤنسوا : يبصروا ويروا .

(٢) الجنادع : بوادر الشر . عتا : زاد وطغى .

(٣) المدر : قطع الطين اليابس والحجارة .

(٤) الديوان رقم ١٦٤ .

(٥) عفا رسمها : محا أثرها . صوب المسبل الهاطل : المطر الغزير .

(٦) السراديح : جمع سرداح وهو الوادى أو المكان الفسيح . أدمانة : موضع عن يمين بدر . المدفع : مكان اندفاع السيل . الروحاء : موضع بين مكة والمدينة . الحائل : المتغير اللون ، وموضع بجبلى طى ، وموضع بنجد .

ساءلتُها عن ذاكَ ، فاستَعْجَمَتْ لم تَدْرِ ما مَرْجُوعَةُ السائِلِ[١]
دَعْ عنكَ داراً قد عفا رَسْمُها وابْكِ على حمزةَ ذى النائل[٢]
المالئُ الشِّيزَى إذا أَعْصَفَتْ غَبْراءُ فى ذى السَّنَةِ الماحِلِ[٣]
التارِكُ القِرْنَ لَدَى قِرْنِهِ يَعْثُرُ فى ذى الخُرُصِ الذَّابِلِ[٤]
واللابِسُ الخَيْلَ إذا أَحْجَمَتْ كالليثِ فى غابتِهِ الباسلِ[٥]
أَبْيَضُ فى الذِّروةِ من هاشِمٍ لم يَمْرِ دونَ الحقِّ بالباطِلِ[٦]
ما لِشَهِيدٍ بَيْنَ أَرْماحِكُمْ شَلَّت يَدَا وَحْشِيٍّ مِن قاتِلِ[٧]
صلى عليك اللهُ فى جَنةٍ عاليةٍ مُكْرَمةِ الداخل

تصحيح بعض الآراء

فتراه قد تساءل عن الدار التى عفا رسمها المطر ، لأنها لم تدر كيف تجيبه ، ثم انتقل عنها إلى بكاء حمزة ، لم يذكر أحبة ولم يتغزل ، وإن عدّ بعضهم ما فى هذا المطلع من تساؤل عن الدار غزلا[٨] .

وأضفى على حمزة من نعوت الخير ما هو جدير به ، كرماً وجوداً ، وبسالة وإقداماً ، وطهارة ونقاء ، ثم دعا على قاتله ، وذكر ظلام الأرض لفقده ، وأن الجنة العالية مثواه ، والتفت إلى هند ، لما كان منها فى مقتله من تَشَفٍّ وحشى ، فعبرهاما أصاب حمزةُ من أهلها، فى أبيها وأسرتها، وكرّمه حين جعل جبريل له وزيراً .

المذهب الجاهلى فى رثاء حمزة

وهذه القصيدة فى جملتها على غرار شعره الجاهلى ، فى قوتها وفخامتها وجزالة

---

(١) استعجمت : لم تجب . مرجوعة السائل : جوابه .
(٢) النائل : العطاء .
(٣) الشيزى : جفان من خشب يقدم فيها الطعام . أعصفت غبراء : اشتدت ريح تثير الغبار . ذى السنة الماحل : العام المجدب .
(٤) الخرص : السنان . ذى الخرص الذابل : الرمح .
(٥) اللابس الخيل : الذى يغشاها وفرسانها . الباسل : الشديد الكريه .
(٦) أبيض : المراد به نقاء عرضه . يمرى : يجادل ويجحد .
(٧) وحشى : قاتل حمزة .
(٨) انظر « الغزل فى العصر الجاهلى » ص ٢١٨ .

عبارتها ، وميله فيها إلى المدح بالنعوت الجاهلية ، وإن لم يسلم بعض أبياتها من المآخذ ، كقوله : « غبراء فى ذى السنة الماحل » .

وقوله : « يعثر فى ذى الخُرُص الذابل » .

وقوله « شَلَّت يَدَا وحْشِيٍّ من قاتل » .

وقوله :

صلى عليكَ اللهُ فى جَنَّـةٍ عاليـةٍ مُكْرَمَـةِ الداخِلِ

فنى هذه العبارات قلق وضعف وتهافت وسوء اختيار .

وقد مر بذكر الإسلام مروراً ، وعبر من الجنة ووصفها عبوراً ، لم يقف بها ولم يتلبث ، فيقص من قصصها ، ويصف من نعيمها ، ويحبب القوم فيها ، ويبين حقارة الدنيا إلى جانبها ، وخداع زخرفها وباطلها ، كما أنه لم يتجه إلى وصف مقتل حمزة وتصوير ما جرى حوله ، وكان أمامه من ذلك مجال واسع ، وربما عدل به عن الحديث فى الدنيا والآخرة والجنة وما فيها ما جاء من ذلك بالقرآن ، مما قد يعد كل قول معه من لغو الكلام .

خلو رثاء حسان من الحكمة والفلسفة . تعليل ذلك

ويدعونا هذا إلى ذكر ظاهرة واضحة فى رثاء حسان ، هى خلوه من الحكمة ، ولم نتعرض للكلام عنها فى رثائه الجاهلى ؛ لأن قلته البالغة لا تساعد على استخلاص مثل هذا الحكم ، أما رثاؤه الإسلامى فكثير ، والروح الإسلامية مصدر غزير للتأمل والحكمة ، والكلام فى فلسفة الحياة والموت والبقاء والفناء ، وصروف الزمان وأحكام المقادير ، فهو لهذا أولى من غيره بالإكثار منها ، فضلا عن أن الالتجاء إلى الحكمة فى المراثى ظاهرة قديمة فى الأدب العربى ، ونزعة ظهرت فى الشعر منذ عصوره الأولى ، وقد استقلت بها أبيات فى مراثى المتقدمين ، كما فى مرثية أبى ذؤيب الهذلى التى مطلعها :

أَمِنَ المَنون ورَيْبها تَتَوَجَّعُ والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ من يَجْزَعُ

وكما ترى للبيد فى مرثيته التى افتتحها بقوله :

بَلِينا وما تَبْلَى النجومُ الطوالعُ وتَبْقَى الجبالُ بَعْدَنا والمَصَانِعُ

وقد أخذت هذه الظاهرة تنمو وتشتد حتى جاء العصر العباسى ، فقوى فيه التفكير الفلسفى ، وكان طبيعيًّا أن يكون أثر هذا التفكير أكثر ظهوراً فى المراثى ، كما ترى ذلك واضحاً فى شعر ابن الرومى والمتنبى وغيرهم .

ولكن الظاهر أن حسان كان مشغولا عن التأمل والحكمة والنظرة الفلسفية بموالاة القول فى الأحداث العاجلة المتراكبة ، ولم يكن وقته يتسع لأكثر من قص قصص المصاب وبكاء الشهداء . وكان يرى أن خلط الرثاء بالوعيد والتحريض والهجاء إذ ذاك أولى مما عداه ، لأنه أجدى فى مثل تلك الظروف . وربما أغراه بانتهاج هذه الطريقة أن القرآن قد أتى من الحكمة وتوجيه العقل البشرى إلى النظر والتفكير بالشىء الكثير .

رثاء جعفر بن أبى طالب

وقوله فى رثاء جعفر بن أبى طالب شهيد مؤتة يمثل إلى جميل الرثاء صادق اللوعة والبكاء ، وكأنى به وقد جلس إلى نفسه يردد هذا القول ويرجعه، فى تنغيم حزين ويأس غالب ، وقد استعان على هذا الترجيع والتنغيم بوصل أواخر الأبيات بأوائل ما يليها ، ليمد فى النفس ويطيل الأنّة ، ويستعين على البكاء . استمع إلى ذلك فى قوله [1] :

ولقد بَكَيْتُ ، وعَزَّ مَهْلِكُ جعفرٍ حِبِّ النبىِّ على البَرِيَّةِ كُلِّها[2]

ولقد جَزِعْتُ ، وقلتُ حِينَ نُعِيتَ لى مَنْ لِلْجلاَدِ لدَى العُقَابِ وظِلِّها[3]

بالبيضِ حينَ تُسَلُّ من أَغْمادِها يوماً وإنْهَالِ الرماحِ وعَلِّها [4]

---

(١) الديوان رقم ١٦٥ .

(٢) حب النبى : محبوبه ، وعلى البرية : متعلق بعز .

(٣) الجلاد : المضاربة فى القتال ، والعقاب : اسم راية رسول الله .

(٤) إنهال الرماح : الضرب بها كأنها تشرب من دماء الأعداء ، وعلها : الضرب بها مرة بعد مرة .

بعدَ ابنِ فاطمةَ المباركِ جعفرٍ خيرِ البريةِ كُلِّها ، وأَجَلِّها[١]
رُزْءًا وأَكرَمِها جميعاً مَحْتِدًا وأَعَزِّها مُتَظَلِّماً ، وأَذَلِّهَا[٢]
للحقِّ حينَ يَنُوبُ غيرَ تَنَحُّلٍ كَذِباً ، وأَغْمَرِها نَدًى ، وأَقلِّها[٣]
فُحْشاً ، وأكثرِها إذا ما تُجْتَدَى فَضْلاً ، وأَبْذَلِها نَدًى ، وأَدَلِّها[٤]
عَالْخَيْر بعدَ مُحَمَّدٍ . لا شِبْهُهُ بَشَرٌ يُعَدُّ من البَريَّةِ جُلِّها[٥]

رثاء عمر بن الخطاب

أما رثاؤه عمر بن الخطاب فإنه على إيجازه مصور لأخلاقه وحكومته خير تصوير ، إذ يقول :

وفَجَّعَنَا فَيْرُوزُ ، لا درَّ دَرُّهُ بأَبيضَ يَتْلُو الْمُحْكَماتِ مُنِيبِ[٦]
رءوفٍ على الأَدْنَى ، غَلِيظٍ على العِدَا أَخِي ثِقَةٍ فى النائبات نَجِيبِ[٧]
متى ما يَقُلْ لا يَكْذِبِ القَوْلَ فِعْلُهُ سريعٌ إلى الخيراتِ غيرُ قَطُوبِ[٨]

وهو يحمل الطابع الإسلامى فيما وصفه به ، ومستمد قوله : « رءوف على الأدنى غليظ على العدا » من قوله تعالى : « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » أو قوله : « أَذِلَّةٍ على المؤمنين أَعِزَّةٍ على الكافرين » .

صدق العاطفة فى رثاء عثمان

ولحسان فى عثمان بن عفان مراثٍ تفيض حبًّا وحرارة وحماسة ، وتشتعل تحريضاً

---

(١) فاطمة : بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وهى أم طالب وعقيل وعلى وجعفر .
(٢) أعزها متظلماً : أعنفها على الظالم وأغلبها له .
(٣) التنحل : الادعاء .
(٤) تجتدى : يطلب منها العطاء . الندى : الجود .
(٥) الديوان رقم ١٣٥ .
(٦) فيروز : قاتل عمر وهو غلام فارسى . لادر دره : لا أثمر عمله خيراً . المحكمات : آيات القرآن . منيب : راجع إلى الله فى أمره .
(٧) غليظ : شديد قاس . أخى ثقة : صاحب ثقة وأمانة . النجيب : الكريم الأصل الحسيب .
(٨) قطوب : عبوس .

وتهديداً ، وفيها من صدق العاطفة ما أمدها بالقول المحكم ، وزودها بالعبارة القوية ، فجاء أكثرها جيداً . منها قوله [١] :

مَنْ سَرَّهُ الموتُ صِرْفاً لا مِزاجَ لَه ... فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً فى دارِ عُثْمانَا [٢]

مُسْتَحْقِبى حَلَقِ المَاذِىِّ ، قد سَفَعَتْ ... فَوْقَ المخَاطِمِ بَيْضٌ زانَ أَبْدَانَا [٣]

بلْ ليتَ شِعْرِى ، وَلَيْتَ الطَّيْرَ تُخْبِرُنى ... ما كان شَأْنُ علىٍّ وابنِ عَفَّانا

لَتَسْمَعَنَّ وشِيكاً فى دِياركُمُ ... اللهُ أَكْبَرُ يا ثاراتِ عُثْمانَا

ومنها فى تقريع القتلة وتهديدهم [٤] :

أَتَرَكْتُمُ غَزْوَ الدُّرُوبِ وجِئْتُمُ ... لِقِتالِ قَوْمٍ عندَ قَبْرِ محمدِ

فَلَبِئْسَ هَدْىُ الصالحين هَدَيْتُمُ ... ولَبِئْسَ فِعْلُ الجاهِلِ المُتَعَمِّدِ

وقد تناول فى رثائه وصف دار عثمان وما أصابها ، وما كانت عليه من قبل ، ودعا الناس لإعلان ما فى نفوسهم من سخط على القتلة ، والإنابة لأمر الله ، وتوعدهم شرًّا يأتيهم إن خالفوا عن ذلك [٥] :

إنْ تُمْسِ دارُ بَنِى عَفَّانَ خالِيَةً ... بابٌ صَرِيعٌ وبابٌ مُحْرَقٌ خَرِبُ

فقد يُصَادِفُ بَاغِى الخَيْرِ حاجَتَهُ ... فيها ، ويَأْوِى إليها الذِّكْرُ والحَسَبُ

يَاأَيُّها الناسُ أَبْدُوا ذاتَ أَنفسِكُمْ ... لا يَسْتَوِى الصِّدقُ عندَ اللهِ والكذِبُ

إلَّا تُنِيبُوا لأَمرِ اللهِ تَعْتَرِفُوا ... كتائباً عُصَباً مِنْ خَلْفِها عُصَبُ [٦]

فيهمْ حَبِيبٌ شِهابُ الحَرْبِ يَقْدُمُهُمْ ... مُسْتَلْئِماً قد بَدَا فى وَجهِهِ الغَضَبُ [٧]

---

(١) الديوان رقم ٢٠ .

(٢) المزاج : ما يمزج بغيره . المأسدة : موطن الأسود .

(٣) استحقب الشىء : جعله خلفه . الحلق : الدروع والسلاح . الماذى : خالص الحديد . سفعت : تركت أثراً . المخاطم : الأنوف . البيض : الحديد . الأبدان : الدروع .

(٤) الديوان رقم ٣٠ .

(٥) الديوان رقم ٣١ .

(٦) تعترفوا : تعرفوا وتروا . عصبا : جماعات .

(٧) حبيب : هو حبيب بن مسلمة الفهرى وكان من قواد معاوية بالشام . يقدمهم : يقودهم ويسير أمامهم . مستلئم : لابس لأمة الحرب وهى الدرع .

وقال أيضاً [١] :

ما نَقِمْتُمْ من ثيابٍ خِلْفَـــةٍ وعَبِيد وإمَاءٍ وذَهَـــبْ[٢]
قُلْتُمُ بَدِّلْ ، فقد بَدَّلَكُمْ سَنَةً حَرَّى وحَرْباً كاللَّهَبْ[٣]
ففَرِيقٌ هالِكٌ مِنْ عَجَفٍ وفريقٌ كان أَوْدَى فَذَهَبْ[٤]
إذْ قَتَلْتُمْ ما جِدًا ذا مِرَّةٍ واضِحَ السُّنَّةِ معروفَ النَّسَبْ[٥]

حسان وكعب بن مالك فى رثاء عثمان

وواضح من هذا الشعر ، ومما قدمنا عند الكلام فى سيرة حسان أنه كان عثمانيًّا مبالغاً فى عثمانيته ، وكان يسايره فى هذه النزعة كعب بن مالك الذى بكى عثمان ورثاه [٦] ، ولكنك ترى فى شعر حسان إلى جانب الرثاء التقريع والتحريض والوعيد والهجاء والسياسة ، وذكر الجنة والقضاء والقدر ، وتلمح تأثره بالقرآن فى بعض قوله . ولا ترى فى شعر كعب إلا الرثاء والتوبيخ .

وبين مرثية حسان الأخيرة ومرثية كعب التى مطلعها [٧] :

مَنْ مُبْلِغُ الأَنصارَ عَنِّى آيَةً رُسُلاً تَقُصُّ عليهم التِّبْيَانَا

تشابه فى بعض الأفكار والمعانى . فقول كعب :

يا لَهْفَ نَفْسِى إذْ يقول أَلا أَرَى نَفَرًا من الأَنصارِ لِى أَعْوَانَا

يشبه قول حسان :

لَهْفانَ يَدْعُو غائباً أَنصارَهُ يا وَيْحَكُمْ يا مَعْشَرَ الأَنصارِ

وقول كعب :

مَحْضَ الضَّرائِبِ ماجِدًا أَعْرَاقُهُ من خيرِ خِنْدِفَ مَنْصِباً ومَكاناً

---

(١) الديوان رقم ٣٢ .
(٢) خلفة : مختلفة كثيرة .
(٣) بدل : غير سياستك وولاتك . سنة حرى : شديدة مجدبة .
(٤) العجف : الهزال . أودى : هلك .
(٥) المرة : القوة . السنة : الطريقة .
(٦) الأغانى ١٥/٢٦ – ٢٩ .
(٧) المرجع السابق .

غَرَفَتْ له عُلْيَا مَعَدٍّ كُلِّهَا بَعْدَ النبيِّ المُلْكَ والسلطانا

يسبق قول حسان :

غَدَرُوا بأَبيضَ كالهِلالِ مُبَرَّإٍ خَلَصَتْ مَضَارِبُهُ بِزَنْدٍ وَارِ
مِنْ خيرِ خِنْدِفَ كلِّها بَعْدَ الذى نَصَرَ الإلهُ بهِ على الكُفَّارِ

وقول كعب :

أَنَسِيتُمُ عَهْدَ النبيِّ إليكُمُ ولقد أَلَظَّ ووَكَّدَ الأَيْمانَا

كقول حسان :

ونَسُوا وَصَاةَ محمدٍ فى صِهْرِهِ وتَبَدَّلُوا بالعِزِّ دارَ بَوَارِ

ومن الواضح أن حسان كان فى رثائه لعثمان وغيره يؤرخ للأحداث التى صاحبت ذلك الرثاء وأحاطت به ، كما كان فى الغزوات وغيرها مؤرخاً ومسجلا .

رثاؤه دليل براءته من العصبية القبلية

ومما يستوقف النظر أن حسان رثى قتلى يوم الرَّجيع ، وفيهم خُبيبُ بنُ عَدِىٍّ الأوسى فى قطعة من شعره[١] ، ثم خص خبيباً بالرثاء فى أربع قطع أخرى ، فيها التفجع والحزن[٢] ، مع أنه لم يخصص لرثاء عبد الله بن رواحة — وهو خزرجى — وقد استشهد أميراً على جيش المسلمين بمؤتة شيئاً من شعره ، وإن رثاه مع الشهداء الآخرين ، ولا شك فى أن هذا دليل على براءة حسان من العصبية القبلية ، وما كان من آثارها السالفة بين الأوس والخزرج ، فمن رثائه خبيباً قوله[٣] :

ما بالُ عَيْنِكَ لا تَرْقَا مَدَامِعُها سَحَّاعلى الصَّدْرِ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ القَلِقِ[٤]
على خُبَيْبٍ وَفِى الرحمٰنِ مَصْرَعُهُ لا فَشِلٍ حينَ تلقاهُ ولا نَزِقِ[٥]

---

(١) الديوان رقم ٧٥ .
(٢) الديوان الأرقام ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٢٠ ، ٢٠٢ .
(٣) الديوان رقم ٩٨ .
(٤) ترقا : تجف . السح : الصب . القلق الذى لا يثبت بمكانه .
(٥) النزق : الأحمق الطائش السيء الخلق .

فاذهبْ خُبَيْبٌ جزاكَ اللهُ طَيِّبَةً وجَنَّةَ الخُلْدِ عِنْدَ الحُورِ فى الرُّفُقِ[١]
ماذا تقولون إنْ قال النبِىُّ لكمْ حينَ الملائكةُ الأَبْرارُ فى الأُفُقِ
فيما قَتَلْتُمْ شَهِيدَ اللهِ فى رَجُلٍ طاغٍ قَدْ اوْعَثَ فى البُلْدَانِ والطُّرُقِ[٢]

مخالفته المذهب المألوف فى الرثاء

ثم هجا بعد ذلك قاتليه . وكثيراً ما كان يجمع حسان بين رثائه وهجائه على غير ما ألف العرب ، لأن أكثر من رثاهم لم يموتوا حتف أنوفهم ، ولكنهم كانوا ممن استشهدوا فى سبيل الله . فكان طبيعيًّا حين يرثيهم أن يهجو قاتليهم .

رثاؤه كمدحه دون مستوى شعره

وشعر حسان فى الرثاء جملة كمدحه ، كلاهما دون مستوى شعره ، وذلك لما أسلفنا عند الكلام فى مدحه .

رثاؤه دون رثاء معاصريه

ورثاؤه كذلك دون رثاء غيره من معاصريه ، فالنابغة الجعدى على قلة ما أثر من رثائه كان محسناً فيه ، وفى بيتيه الآتيين تأييد هذا الرأى :

فَتًى كَمُلَتْ خَيْراتُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فما يُبْقِى من المال باقيَا
فتًى كان فيه ما يَسُرُّ صَدِيقَـــهُ عَلَى أَنَّ فيه ما يَسُوءُ الأَعادِيَا[٣]

والخنساء متقدمة فى الرثاء ، وأكثر شعرها فيه[٤] ، وقد أعانها عليه أنه إنما تزجيه اللوعة وتهيجه الحسرة . والنساء أرق عاطفة وأشجى قلوباً ، وأكثر تعويلا على البكاء وانقطاعاً إلى الحزن ، وقد كان بكاؤها حارًّا صادقاً لأنه فى أخويها .

وكذلك كان رثاء قُتَيْلَةَ بنت النضر ، تبكى أباها أو أخاها[٥] :

---

(١) الرفق : جمع رفيق أى مع رفقائك من النبيين والصالحين .
(٢) أوعث : خلط وأفسد . يريد به الحارث بن عامر بن نوفل الذى قتل ببدر .
(٣) الشعر والشعراء ص ٩٨ .
(٤) ارجع إلى ديوانها .
(٥) سيرة ابن هشام ٣/٤٤ .

يا راكباً إنَّ الأُثَيْلَ مَظِنَّـةٌ مِنْ صُبْحِ خامسةٍ وأَنتَ مُوَفَّقُ[١]
أَبْلِغْ بها مَيْتاً بأَنَّ تَحِيَّةً ما إنْ تَزَالُ بها النَّجَائِبُ تَخْفِقُ[٢]
مِنِّى إليكَ وعَبْرَةً مَسْفُوحَـةً جادَتْ بواكِفِها وأُخرى تَخْنُقُ[٣]
هلْ يَسْمَعَنِّى النَّضْرُ إنْ ناديْتُهُ أَم كيف يَسْمَعُ مَيِّتٌ لا يَنْطِقُ
أَمحمدٌ، يا خيرَ ضِنْءٍ كَرِيمةٍ فى قَوْمها، والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ[٤]
ما كان ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ، ورُبَّمَا مَنَّ الفَتَى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ

ثم جاء جرير، فكان أجود من حسان رثاء. استمع إلى رثاء حسان ابنته إذ يقول[٥]:

عَلِمْتُكِ ـ واللهُ الحَسيبُ ـ عَفِيفةً من المؤْمناتِ غيرَ ذاتِ غَوَائِلِ[٦]
حَصَاناً رَزَانَ الرِّجْلِ يَشْبَعُ جارُها وتُصْبِحُ غَرْثَى من لُحُومِ الغَوَافِلِ[٧]
وما قُلْتُ فى مالٍ تُرِيدِينَ أَخْذَهُ بُنَيَّةُ مَهْلاً إننى غَيْرُ فَاعِلِ

ثم استمع إلى رثاء جرير زوجته بقوله:

لولا الحَيَاءُ لَهَاجَنِى استِعْبَارُ وَلَزُرْتُ قَبْرَكِ، والحبيبُ يُزَارُ[٨]
وَلَّهْتِ قَلْبِىَ إِذْ عَلَتْنِىَ كَبْرَةٌ وذَوُو التَّمَائِمِ من بَنِيكِ صِغَارُ[٩]
أَرْعَى النجومَ، وقد مَضَتْ غَوْرِيَّةً عُصَبُ النجومِ، كأَنهن صُوَارُ[١٠]
ولقد أَرَاكِ كُسيتِ أَجملَ مَنْظَرٍ ومَعَ الجَمالِ سَكِينةٌ ووَقَارُ

---

(١) الأثيل: موضع فيه قبر النضر. أى يظن أن تبلغه فى صبح الليلة الخامسة إذا وفقت فى سيرك.
(٢) النجائب: الإبل الكريمة. تخفق: تسرع.
(٣) الواكف: السائل.
(٤) الضنء: الأصل والولد. معرق: له أصول راسخة فى الكرم.
(٥) الديوان رقم ١١٢.
(٦) الغوائل: الدواهى.
(٧) حصان: عفيفة. رزان الرجل: ذات ثبات ووقار وعفاف، غرثى: جائعة. الغوافل: جمع غافلة أى أنها لا تستبيح أعراض الناس.
(٨) استعبار: حزن ودمع.
(٩) كبرة: كبر وضعف.
(١٠) غورية: غائبة. الصوار: القطيع من بقر الوحش.

والرِّيحُ طَيِّبَةٌ إذا استَقْبَلْتِها ... والعِرْضُ لادنِسٌ ولا خَوَّارُ
وإذا سَرَيْتُ رأيتُ نارَكِ نَوَّرَتْ ... وَجْهاً أَغَرَّ يَزِينُهُ الإِسْفَارُ
صلى الملائكةُ الَّذِينَ تُخُيِّرُوا ... والصالحونَ عليكِ والأَبْرَارُ
لا يُلْبِثُ القُرَنَاءَ أَنْ يَتَفَرَّقُـوا ... لَيْلٌ يَكُرُّ عليهِمُ ونَهَارُ

تجد فى الموازنة بينهما تصديق ما ذكرناه .

الفنون الأخرى فى شعره

لم يخل شعر حسان الجاهلى من الحكم والأخلاقيات والنصح والشكوى، مما يدخل فى باب الأدب على ما بينا هناك . وقد انفسح أمامه المجال بالإسلام ، فقال فى الأدب ، وأنشأ الشعر الدينى ، بما يتضمنه من إعلان للعقيدة ودعاوة ودفاع ، وما يشبه أن يكون ملاحم عدد فيها أيام الأنصار ، وكان الوعيد والتحريض من الأغراض التى نالت حظا وافراً من شعره ، إلى ما له من شعر سياسى ، دافع به خصوم الدولة الإسلامية الناشئة . وجبه به شعراء القبائل والوفود .

١ ــ الأدب [١]

فمن عيون قوله فى الحكمة [٢] :

رُبَّ حِلْمٍ أَضاعَهُ عَدَمُ المالِ ... ، وجَهْلٍ غَطَّى عليه النَّعِيمُ
ما أُبَالِي أَنَبَّ بالحَزْنِ تَيْسٌ ... أَم لَحَانِى بظَهْرِ غَيْبٍ لَئِيمُ [٣]

وقوله [٤] :

وأَجْعَلُ مَالِى دُونَ عِرْضِى وِقايَةً ... وأَحْجُبُهُ كَىْ لا يَطِيبَ لآكِلِ
وأَىُّ جَدِيدٍ ليس يُدْرِكُه البِلَى ... وأَىُّ نَعِيمٍ ليس يَوْماً بِزائِلِ

---

(١) الديوان الأرقام : ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٧ ، ٣١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٣١ ، ١٤٦ .
(٢) الديوان رقم ٥ .
(٣) نب التيس : صاح عند وثوبه للسفاد . الحزن : ما غلظ من الأرض . لحانى : شتمنى .
(٤) الديوان رقم ١٧ .

ومن قوله الجارى مجرى الأمثال[١] :

لا عَيْبَ بالقوم من طُولٍ ولا عِظَمِ ... جِسْمُ البِغالِ وأَحْلامُ العصافيرِ
لا يَنْفَعُ الطُّولُ من نُوكِ القُلوبِ ولا ... يَهْدِى الإلٰهُ سبيلَ المَعْشَرِ البُورِ[٢]

ومنه وقد ضمنه بعضها[٣] :

فإنَّا ومَنْ يُهْدِى القصائدَ نَحْوَنَا ... كمُسْتَبْضِعٍ تَمْرًا إلى أَهلِ خَيْبَرَا[٤]
فلا تَكُ كالوَسْنَانِ ، يَحْلُمُ أَنَّهُ ... بقَرْيَةِ كِسْرَى أو بِقَرْيَةِ قَيْصَرَا
ولا تَكُ كالشَّاةِ التى كان حَتْفُهَا ... بِحَفْرِ ذِراعَيْها فلم تَرْضَ مَحْفَرَا
ولا تَكُ كالعَاوِى ، فأَقْبَلَ نَحْرَهُ ... ولم يَخْشَهُ سَهْماً من النَّبْلِ مُضْمَرَا[٥]
أَتَفْخَرُ بالكَتَّانِ لما لَبِسْتَهُ ... وقد تَلْبَسُ الأَنْباطُ. رَيْطاً مُقَصَّرَا[٦]

ومن قوله فى الأخلاق[٧] :

لكِ الخَيْرُ ، غُضِّى اللَّوْمَ عنى، فإننى ... أُحِبُّ من الأَخلاقِ ما كان أَجْمَلاَ
أَلَمْ تَعْلَمِى أنى أرى البُخْلَ سُبَّةً ... وأُبْغِضُ ذا اللَّوْنَيْنِ والمُتَنَقِّلا
إذا انْصَرَفَتْ نَفْسى عن الشىءِ مَرَّةً ... فلَسْتُ إليه آخِرَ الدَّهْرِ مُقبِلاَ

وبيته الأخير موافق بيت معن بن أوس موافقة تشبه أن تكون تامة ، إذ يقول :

إذا انصرفتْ نفْسى عن الشىءِ لم تَعُدْ ... إليه بِوَجْهٍ آخرَ الدَّهرِ تُقْبِلُ

---

(١) الديوان رقم ١٠٣ .
(٢) أحلام : عقول . نوك : حمق . البور : جمع بائر ، وهو الخاسر الهالك .
(٣) الديوان رقم ١٠٥ .
(٤) مستبضع : جالب بضاعة .
(٥) أقبل نحره سهماً : جعل صدره قبالة السهم وعرضه له .
(٦) الأنباط : جيل من الناس كانوا ينزلون سواد العراق . الريط : الثياب الرقيقة اللينة ، والواحدة ريطة . مقصر : محور .
(٧) الديوان رقم ٦ .

وقوله [١] :

فما أَحَدٌ منا بِمُهْدٍ لِجارِهِ أَذَاةً ، ولا مُزْرٍ به وهو عَامِدُ
لأَنا نَرَى حَقَّ الجِوَارِ أَمانةً ويَحْفَظُهُ منا الكريمُ المُعَاهِدُ

وقوله يدعو إلى التحلى بالشجاعة الأدبية [٢] :

يأَيُّها الناسُ أَبْدُوا ذاتَ أَنْفُسِكُمْ لايَسْتَوِى الصدقُ عندَ اللهِ والكَذِبُ

ومن قوله فى عتاب الرسول حين أعطى قبائل العرب من سبى هوازنَ ولم يعط الأنصار [٣] :

وَأْتِ الرسولَ فقُلْ يا خيرَ مُؤْتَمَنٍ للمؤمنينَ إذا ما عُدِّلَ البَشَرُ
عَلاَمَ تُدْعَى سُلَيمٌ وهى نازحَةٌ أَمَامَ قومٍ هُمُ آوَوْا وهم نَصَرُوا
سَمَّاهُمُ اللهُ أَنصارًا لنَصْرِهُمُ دينَ الهُدَى وعَوَانُ الحربِ تَسْتَعِرُ

ومن قوله فى الاعتذار للسيدة عائشة ، وليس له اعتذار سواه فى جاهليته وإسلامه [٤] :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وتُصْبِحُ غَرْثَى من لُحُومِ الغَوَافِلِ [٥]
عَقِيلَةُ حَيٍّ من لُؤَىِّ بنِ غالِبٍ كِرَامِ المَسَاعِى مَجْدُهُمْ غيرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قد طَيَّبَ اللهُ خِيمَها وطَهَّرَها من كلِّ سُوءٍ وباطِلِ [٦]
فإِنْ كنتُ قد قُلْتُ الذى قد زَعَمْتُمُ فلا رَفَعَتْ سَوْطِى إِلَىَّ أَنَامِلِى

---

(١) الديوان رقم ٧ .
(٢) الديوان رقم ٣١ .
(٣) الديوان رقم ١٣١ .
(٤) الديوان رقم ١٤٦ وسيرة ابن هشام ٣/٣١٩ على خلاف فى ترتيب الأبيات .
(٥) حصان : عفيفة . رزان : ذات ثبات ووقار ملازمة مجلسها . تزن : تتهم . غرثى : جائعة . الغوافل : جمع غافلة أى الغافلة القلب عن الشر .
(٦) عقيلة : كريمة . الخيم : الطبع والأصل .

٢ ـ الشعر الدينى التاريخى [١]

ومنه قوله فى الدفاع عن رسول الله بقصيدة الفتح [٢]:

وقال اللهُ قد يَسَّرْتُ جُنْدًا ... هُمُ الأَنصارُ عُرْضَتُها اللِّقَاءُ [٣]
لنا فى كلِّ يَوْمٍ من مَعَـدٍّ ... قِتالٌ أو سِبابٌ أو هِجَاءُ
فَنُحْكِمُ بالقَوَافِى من هَجَانَا ... ونَضْرِبُ حينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ
وقال اللهُ قد أَرْسَلْتُ عَبْدًا ... يقولُ الحَقَّ لو نَفَعَ البَلاَءُ
شَهِدْتُ به وقَوْمِى صَدَّقُوهُ ... فقلتُمُ ما نُجِيبُ وما نَشَاءُ

وقوله فى عقيدته وإسلامه [٤]:

شَهِدْتُ بإذنِ اللهِ أَنَّ محمدًا ... رسولُ الذى فَوْقَ السمٰواتِ مِنْ عَلُ
وأَن أَبا يَحْيِى ويَحْيِى كِلَيْهِمـا ... له عَمَلٌ فى دِينِهِ مُتَقَبَّلُ [٥]
وأَن التى بالسُّدِّ من بَطْنِ نَخْلَةٍ ... ومَنْ دَانَها فَلٌّ مِن الخَيْرِ مَعْزِلُ [٦]
وأَن الذى عَادَى اليهودُ ابنَ مَرْيَم ... رسولٌ أَتَى مِنْ عندِ ذِى العَرْشِ مُرْسَلُ
وأَن أَخا الأَحْقَافِ إِذْ يَعْذُلونَهُ ... يُجاهِدُ فى ذاتِ الإِلٰهِ ويَعْدِلُ [٧]

وفى الدعاوة [٨]:

نَبِىٌّ أَتانا بَعْدَ يَأْسٍ وفَتْرَةٍ ... من الرُّسْلِ والأَوْثانُ فى الأَرضِ تُعْبَدُ

---

(١) الديوان الأرقام: ١، ٩، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ٢٣، ٢٥، ٣٦، ٤٤، ٦٠، ٦٣، ٩١، ١٤٤، ١٥٣، ١٥٤، ١٧٥.

(٢) الديوان رقم ١.

(٣) عرضتها اللقاء: أى أنها قوية على القتال.

(٤) الديوان رقم ٩١.

(٥) أبو يحيى: هو النبى زكريا.

(٦) بطن نخلة: موضع بالحجاز بين مكة والطائف كانت به العزى وهى صنم لقريش وبنى كنانة. دانها: عبدها. فل: خال، والفل الأرض لا تنبت.

(٧) أخو الأحقاف: هود عليه السلام والأحقاف ديار عاد (انظر الخريطة).

(٨) الديوان ١٥٤.

فأمسى سِراجاً مُسْتَنيراً وهادِياً ... يَلُوحُ كما لاح الصَّقِيلُ المُهَنَّدُ
وأَنْذَرَنا ناراً ، وبَشَّرَ جَنَّةً ... وعَلَّمَنـــا الإسلامَ ، فالله نَحْمَدُ
وأنت إلٰهُ الحقِّ ربِّى وخالِقِى ... بذلك ما عُمِّرْتُ فى الناس أَشْهَدُ
تعالَيْتَ رَبَّ الناسِ عن قَوْلِ مَنْ دعا ... سِوَاكَ إلٰهاً ، أنتَ أَعْلَى وأَمْجَدُ
لك الخَلْقُ والنَّعْماءُ والأَمْرُ كُلُّهُ ... فإيّاكَ نَسْتَهْدِى وإيّاكَ نَعْبُدُ

وقوله فى غزوة الأحزاب[1] :

أَمُّوا بِغَزْوِهِمُ الرسولَ ، وأَلَّبُوا ... أَهلَ القُرَى وبَوَادِىَ الأَعْرَابِ
جيشٌ عُيَيْنَةُ وابنُ حَرْبٍ فيهِمُ ... مُتَخَمِّطِينَ بِحَلْبَةِ الأَحْزَابِ[2]
حتى إذا وَرَدُوا المدينةَ وارتَجَوْا ... قَتْلَ النبىِّ ومَغْنَمَ الأَسْلاب
وغَدَوْا علينا قادِرِينَ بأَيْدِهِمْ ... رُدُّوا بغَيْظِهِمُ على الأَعْقَابِ[3]
بِهُبُوبِ مُعْصِفَةٍ تُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ ... وجُنودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الأَرْبَابِ
وكفى الإلٰهُ المؤمِنِينَ قِتالَهُمْ ... وأَثَابَهُمْ فى الأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ

وقوله فى بدر الآخرة[4] :

إذا ارتَحَلُوا من مَنْزِلٍ خِلْتَ أنهُ ... مُدَمَّنٌ أَهلِ المَوْسِمِ المُتَعَارِكِ[5]
نَسِيرُ فلا تَنْجُو اليَعَافِيرُ وَسْطَنا ... ولو وَأَلَتْ مِنا بِشَدٍّ مُواشِكِ[6]
ذَرُوا فَلَجَاتِ الشامِ . قد حال دُونَها ... ضِرابٌ كأَفْواهِ المَخَاضِ الأَوَارِكِ[7]

---

(١) الديوان ١٤ .
(٢) عيينة بن حصن الفزارى وكان يقود غطفان ، وابن حرب هو أبو سفيان قائد قريش . متخمطين : شديدى الغضب والجلبة .
(٣) الأيد : القوة .
(٤) الديوان ١٦ .
(٥) مدمن : ما به آثار الدمنة من روث وبعر ونحوها .
(٦) اليعافير : جمع يعفور وهو الظبى . وألت : هربت . بشد مواشك : بجرى سريع .
(٧) فلجات : أودية . المخاض : الإبل الحوامل . الأوارك : التى ترعى الأراك .

بأَيْدِى رِجَالٍ هاجروا نَحْوَ رَبِّهِمْ وأَنْصارِهِ حَقًّا وأَيْدِى المَلاَئِكِ

ولحسان شعر يصف فيه سير قومه من اليمن. وكيف غلبوا على المدينة ، ويعدد أيام الأنصار مع الرسول ، مما يصلح أن يكون مشروع ملاحم شعرية ، تراه فى قصيدته التى مطلعها [١]:

أُولئكَ قَوْمِى ، فإنْ تَسْأَلِى كِرامٌ إذا الضيفُ يوماً أَلَمّْ

وفى أخرى مطلعها [٢]:

أَهاجَكَ بالبَيْداءِ رَسْمُ المَنَازِلِ نَعَمْ قد عَفَاها كلُّ أَسْحَمَ هاطِلِ

٣ ــ التحريض [٣] والوعيد [٤]

ومنه قوله فى مقتل عثمان يتوعد ويحرض [٥]:

لَتَسْمَعُنَّ وَشِيكاً فى دِيارِكُمُ اللهُ أَكبرُ ياثاراتِ عُثْمانَا
وَيْهاً فِدًى لكمُ أُمِّى وما وَلَدَتْ قد ينفعُ الصَّبْرُ فى المكْروهِ أَحيانَا
شُدُّوا السيوفَ بِثِنْى فى مَناطِقِكُمْ حتى يَحِينَ بها فى المَوْتِ مَنْ حانا
لعلكمْ أَنْ تَرَوْا يوماً بِمَغْبَطَةٍ خَلِيفةَ اللهِ فيكم كالذى كانا

وقوله يحرض بنى أبى براء على عامر بن الطُّفَيْل حين غدر ببعث الرسول إلى نجد . وكان أبو بَرَاء جاراً لهم [٦]:

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ عنى رَبِيعاً فما أَحْدَثْتَ فى الحَدَثَانِ بَعْدى [٧]
أَبوكَ أَبو الفَعَالِ أَبو بَرَاءٍ وخالُكَ مَاجِدٌ حَكَمُ بنُ سَعْدِ [٨]

---

(١) الديوان ٩ .
(٢) الديوان ١٧ .
(٣) الديوان ٢٠ ، ١١١ ، ٢٠٣ .
(٤) الديوان ٢٠ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٥٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٢ .
(٥) الديوان ٢٠ .
(٦) الديوان ١١١ .
(٧) ربيع : هو ابن أبى براء . الحدثان : نوب الدهر ، والمراد هنا الحوادث .
(٨) الفعال : اسم للفعل الحسن .

بَنِي أُمِّ البَنِينَ أَلَمْ يَرُعْكُمْ وأَنتمْ من ذَوَائبِ أَهلِ نَجْدِ[1]
تَهَكُّمُ عامرٍ بأَبِي بَرَاءٍ لِيُخْفِرَهُ ، وما خَطَأٌ كَعَمْد[2]

وقوله يحرض قبيلة دَوْس على الثأر لمقتل أبي أزَيهِر الدَّوْسيّ . وكان في جوار أبي سفيان بن حرب[3] :

يا دَوْسُ إنَّ أَبا أُزَيْهِرَ أَصْبَحَتْ أَصْدَاؤُهُ رَهْنَ المُضَيَّحِ فاقْدَحِي[4]
حَرْباً يَشِيبُ لها الوَلِيدُ ، وإنما يَأْتِي الدَّنِيَّةَ كلُّ عَبْدٍ نُحْنُحِ[5]
فابكِي أَخاكِ بِكُلِّ أَسمرَ ذابِلٍ وبكلِّ أَبيضَ كالعَقِيقَةِ مُصْفَحِ[6]
وبكلِّ صافيةِ الأَدِيمِ ، كأَنها فَتْخَاءُ كاسِرَةٌ تَدُفُّ وتَطْمَحِ[7]
وطِمِرَّةٍ مَرَطَى الجِرَاءِ ، كأَنها سِيدٌ بمَقْفَرَةٍ وسَهْبٍ أَفْيَحِ[8]
إن تَقْتُلُوا مائةً بِهِ فَدَنِيَّةٌ بأَبِي أُزَيْهِرَ مِنْ رجالِ الأَبْطَحِ[9]

وقوله يتوعد الذين قعدوا عن نصرة عثمان[10] :

إنْ لم تَرَوْا مَدَدًا له وكَتِيبَةً تَهْدِي أَوائِلَ جَحْفَلٍ جرَّارِ

---

(١) يشير إلى قول لبيد : نحن بنو أم البنين الأربعة . وكلهم نجباء فرسان . وحقيقتهم خمسة هم : (طفيل ، وعامر أبو براء ، وعبيدة الوضاح ، ومعاوية معود الحكماء ، وربيعة أبو لبيد الشاعر) الذوائب الأشراف والأعالى .

(٢) يخفره : ينقض عهده .

(٣) الديوان ٢٠٣ .

(٤) الأصداء : جمع صدى : وهو ما يبقى من الميت في قبره ، أو طائر كانوا يزعمون أنه يخرج من رأس القتيل فيصيح حتى يؤخذ بثأره . اقدحي حرباً : أشعليها .

(٥) النحنح : اللئيم الخسيس .

(٦) الأسمر الذابل : الرمح . الأبيض : السيف . العقيقة : البرق يستطيل كالسيف وسط السحاب مصفح : عريض .

(٧) صافية الأديم : الفرس . الفتخاء : العقاب اللينة الجناح ، تدف : تحرك جناحيها للطيران ، تطمح : ترتفع .

(٨) طمرة : فرس سريعة . مرطى الجراء : سريعة الجرى . السيد : الذئب . السهب : الفلاة المستوية . أفيح : واسع .

(٩) الأبطح : يقصد وادى مكة .

(١٠) الديوان ١٥٧ .

فعَدِمْتُ ما ولَد ابنُ عَمْرٍو مُنْذِرٌ حتى يُنِيخَ جُمُوعُهُمْ بِصِرَارِ[١]

وقوله يتوعد معاوية بن أبي سفيان[٢] .

أَبْلِغْ معاويةَ بنَ حَرْبٍ مَأْلُكاً وَلِكُلِّ أَمرٍ يُسْتَرَادُ قَرَارُ[٣]
لا نَقْبَلَنَّ دَنِيَّةً أَعْطَيْتَها أَبدًا ولمَّا تَأْلَمِ الأَنصارُ[٤]
حتى تُبَارَ قَبِيلةٌ بِقَبِيلةٍ قَوَدًا وتُخْرَبَ بالدِّيار دِيَارُ[٥]
وتَجِيءَ مِنْ نَقَبِ الحجازِ كَتِيبَةٌ ويَسِيلَ بالمُسْتَلْئِمِينَ صِرَارُ[٦]

٤ — الشعر السياسى

حسان رائد الشعر السياسى فى الإسلام

وفى ثنايا ما تقدم من شعر حسان عامة ، وفى الحماسة والفخر والهجاء والرثاء خاصة شعر سياسى ، قاله حسان على عهد الرسول وإبان تكوين الدولة الإسلامية ، يناهض به شعراء قريش وغيرها من القبائل وشعراء اليهود ، هدفه كسب الفوز للإسلام وإعلاء مناره ، وتحقيق وحدة عربية يسودها الإسلام والسلام ، وكان هذا الشعر السياسى يظهر كما أشرنا فى صور شتى ، منها التحريض والوعد والوعيد ، وكان شعر حسان فى وفود القبائل من هذا الفن السياسى . وعلى هذا فحسان وقد كان يمثل جبهة الشعراء الإسلاميين و يقودها يعد أول منشئ للشعر السياسى فى ظل الإسلام ، ومنه قوله لوفد تميم[٧] :

إن الذَّوَائِبِ من فِهْرٍ وإخوتِهِمْ قد بَيَّنُوا سُنَّةً للناسِ تُتَّبَعُ

---

(١) صرار : ماء قرب المدينة ، وقيل جبل ، وقيل موضع .
(٢) الديوان ١٢٣ .
(٣) مألكا : رسالة . يسترد : يطلب .
(٤) أى أن الأنصار لا تقبل فعلة ذميمة منه وهى لم تألم ولم تشك بعد .
(٥) تبار : تهلك . قوداً : قصاصاً وقتل القاتل بالقتيل .
(٦) النقب : الطريق أو الطريق الضيق فى الجبل . المستلئم : لابس اللأمة وهى عدة الحرب كلها .
(٧) الديوان ٢٣ .

كم مِن صديقٍ لهمْ نالُوا كَرَامَتَهُ ومن عَدُوٍّ عليهِمْ جَاهِدٍ جَدَعُوا[١]

وانظر كيف بعث اللجاج شاعر تميم على معاودة القول ، فانبرى له حسان مرة أخرى قائلا[٢] :

هل المَجْدُ إلا السُّودَدُ العَوْدُ والنَّدَى وجاهُ الملوكِ واحتمالُ العَظَائِمِ

نَصَرْنا وآوَيْنا النَّبيَّ محمدًا على أَنْف راضٍ من مَعَدٍّ وراغِمِ

بنى دَارِمٍ لا تَفْخَرُوا ، إنَّ فخرَكُم يَعُودُ وَبَالاً عندَ ذكرِ المَكارِمِ

هُبِلْتُمْ ، علينا تَفْخَرونَ ، وأَنتُمُ لنا خَوَلٌ ، ما بينَ ظِئْرٍ وخادِمِ

ثم انظر كيف تهافت القوم بعد هذا . وقال رسول الله للأقرع بن حابس: « لقد كنت غنيًّا يا أخا دارم أن يذكر ما قد ظننت أن الناس قد نسوه منك » ! وكيف أقروا عند ذاك وأسلموا[٣] .

وهذا قوله لخُزَاعيّ بن عبد نُهَم ، الذى بايعه الرسول على قومه مزينة ، وقد كان هذا القول سبباً فى إسلامهم[٤] :

أَلَا أَبْلِغْ خُزاعِيًّا رَسُولاَ بأَنَّ الذَّنْبَ يَغْسِلُهُ الوَفَاءُ[٥]

وأَنكَ خيرُ عثمانَ بنِ عَمْرٍو وأَسْناها إذا ذُكِرَ السَّنَاءُ

وبايَعْتَ الرسولَ ، وكان خَيْرًا إلى خَيْرٍ ، وأَدَّاكَ الثَّرَاءُ

فما يُعْجِزْكَ أَو مالا تُطِقْهُ مِنَ الأَشياءِ لا تَعْجِزْ عِدَاءُ[٦]

وهذا وغيره يبيح لنا أن نقول إن شعر حسان السياسى كان قويًّا جيداً ، وإنه استن فيه أسلوباً ناجحاً ، فآتى ثمره ، وبلغ به من أعداء الإسلام مراده .

---

(١) المراد أنهم ينفعون أصحابهم ويضرون أعداءهم . جدعوا : استأصلوا .

(٢) الديوان ٢٥ .

(٣) انظر ص ٢٠٢ من هذا الكتاب .

(٤) انظر ص ٢٠٣ . منه .

(٥) رسول : رسالة .

(٦) عداء : بطن من مزينة هم قوم خزاعى .